عرسان في مجاهل الصحراء

رواية

جهاد نصر مقلد (نبيل)

الطبعة الأولى

2020م ـ 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

عنـــوان الكتاب: عرسان في مجاهل الصحراء

اســـــم المـؤلف: جهاد نصر مقلد " نبيل "

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 21744 / 2020

الترقيـــم الدولي: 7 - 96 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـر العام: د. فادية محمد هندومة

المدير التنفيذي: د هبة ماردين

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

عرسان في مجاهل الصحراء

رواية

جهاد نصرمقلد " نبيل "

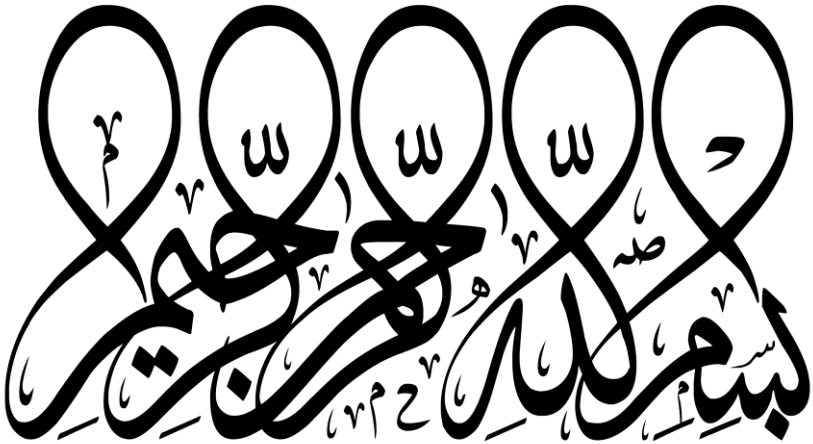
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إهداء خاص...

إلى دار ديوان العرب للنشر والتوزيع وإدارتها المتألقة، التي قدمت لكل صاحب موهبة أدبية مرآة نقية لتعكس نور أفكاره أمام الآخرين... كما لم تترك باباً في الأدب إلا وعبرت برواده نحو شط المعرفة الصائبة وحققت حلم الكُتّاب المحترفين والمستجدين من خلال الدعم المعنوي، والمادي بطباعة نتاجهم ورقياً وإلكترونياً مجاناً في غالب الأحيان مستغلة أبواب المسابقات الأدبية لتترك من خلالها بصمة خيرة دون أن يشعر بالإحراج... عدا عن لمسات خيرة طالت الجميع.

أقدم أجمل التحايا والشكر للأديب المحترم رافع راية حقق حلمك...

(واكتبوا والديوان جاهز لنشر القيّم المفيد) مع احترامي إلى:

الأستاذ: محمد وجيه صاحب الدار

ومديرها العام الأستاذة: فادية محمد هندومة

ومديرها التنفيذي الأستاذة: هبة ماردين

وجميع العاملين والإداريين في الدار

لهم مني أجمل الشكر والتبريكات، والدعاء بالتوفيق.

****

إهداء خاص...

إلى أهل بيتي الكرام الذين أجد بينهم الراحة، ويجدون في كتاباتي المتعة، والكلمة الهادفة الصائبة، ويهبونني الوقت الكافي والهدوء وإن كانوا يفتقدون لأنيس بينهم، وحاجتهم لمحدث... وبالذات إلى زوجتي المحترمة أم طارق... ربة الأسرة الواعية المدبرة.

جهاد نصر مقلد

" نبيل "

****

عرسانٌ في مجاهل الصحراء

[من التراث البدوي]

تأليف: جهاد نصر مقلد.... نبيل

في روايتنا هذه:

في هذه الرواية نجد بعض أحداثها موجعة جداً

وقد يلعب الخيال الدور المهم فيها، لكنها على العموم لا تتعدى التصوير لواقع أهل البوادي وحياتهم المعيشية قبل عقود، وفيها نقدم نظرة إلى الصراع القائم بين الخير والشر... الشر لا يدوم وإن كانت له جولة... وحتماً في النهاية سيهزم، ولا الخير سيستسلم للشر، ولن يقدر الله له الهزيمة، وللخير جولات... وفي النهاية سينتصر وترتفع رايانه.

****

نبذة تاريخية

جميعنا يعلم أنّ البداوة هي أصل المجتمعات البشرية، ونعلم أنّ التجمعات البشرية انتقلت قديماً من حياة البادية والصحراء الصعبة القاسية التي تعتمد على الرعي والسكن في بيوت من الشعر وتتغذى على المنتجات الحيوانية، إلى حياة جديدة فرضها الواقع المعيشي وهي الاستقرار... كما لا يجب ألّا ننسى أن المجتمعات المدنية ظهرت فيما بعد، وتطورت البشرية على يدها.

في الماضي... لم تكن مطامع الإنسان البدوي سوى البحث عن مراعٍ لحيواناته، ليحفظ مصادر الغذاء له ولأسرته، من لحوم ومشتقات ألبان... ومن أصواف الأغنام ليصنع ملابسه، ومن وبر جماله ليؤثث بيته، ومن شعر ماعزه لينسج خيامه كي تأويه... إلا أنّ بعض القبائل اعتمدت زيادة على ما ذكرنا على الإقامة في السهول، واتخذت مهنة أخرى إضافة للرعي وهي الزراعة... مثل زراعة الحبوب والخضراوات وغرس الأشجار المثمرة... وهذا ما دفعها للاستقرار حولها، فبنت البيوت الثابتة فيما بعد من الحجارة والطين، وأنشأت القرى ووسعتها حتى تحولت بعد ذلك إلى مدن كبيرة،

ومع الزمن بدأت تلك التي كانت قبائل متنقلة فيما مضى، بالتفكير بتحسين مصادر عيشها، إلى أن وصلت إلى اختراع الآلة وتطويرها عبر مئات القرون.

ويهمنا نحن من هذه المقدمة لروايتنا، الفئة الأخرى التي بقيت تستوطن البوادي، حيث تجري أحداث قصتنا.

أولئك الذين ظلوا على بدائيتهم، واحتفظوا بالكثير من الخصال العربية الحميدة، ككرم الضيافة وقرى الضيف وإغاثة الملهوف... لكن الطبيعة لا تكتمل إلا ببقاء فئتين متناحرتين... الأولى فئة الأخيار والثانية فئة الأشرار... ولكن للأسف بقيت عقول الجميع تحمل الكثير من العادات السيئة جداً... تلك العادات التي كانت تعتبر في نظرهم ذلك الوقت رمزاً للشجاعة والبطولة، مثل الكسب عن طريق الغزو لبعضهم البعض وسلب أرزاق ومواشي الآخرين بالقوة، بل ربما كانت تصل إلى سبيّ النساء... أما دليلنا على ذلك ما وصل إلينا من بعض الأمثلة الدارجة اليوم، كأن يقال:

عاد (سالماً غانماً) وتعني غزا... وسلم... ونجا بما كسب... ثم نجد ما يؤيد ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي ما زالت تتناقلها الألسن وهواة هذا النوع من التراث حتى اليوم، وكانت تقام لتلك القصائد سهرات يسعد

بحضورها الكثيرون، وتلحن تلك القصائد على الربابة... والحقيقة هي ممتعة جداً لمن يتذوقها وأكثرها وقائع حقيقية ... وفي ذاكرة الناس الكثير من الروايات التي تشيد بكرم أهل البادية وطيب أصلهم.

سأورد قصة من قصصهم في المكان المناسب خلال أحداث الرواية، مع بعض الأبيات التي كانت تروى في سهراتهم

نستطيع القول:

_ لقد انتهت حالات الغزو في العقود الأولى في القرن العشرين عندما توطن أكثر أهل البادية في قرى وتجمعات سكنية مبنية من الإسمنت، ومع اختلاطهم مع المدنية والحضارة؛ أصبحت حاجاتهم من الغذاء والملبس في متناول الجميع، وانتفت الحاجة لبقاء تلك العادات، لكن حكاياتهم ما زالت عالقة في الأذهان وستبقى، واليوم أصبح الجميع يقبعون تحت ظل الدولة وتحت سقف القانون المدني، على ذلك انتهت غزواتهم وحروبهم.

في هذه الرواية نحكي بعض حياة القبائل في البادية ونتطرق إلى عاداتهم الأصيلة من ناحية، ومن ناحية أخرى تعرض السيئات التي حملها بعض الأشخاص الموجودين في كل مكان ولا تقتصر على أقوام محددة، والذين لا

تخلو منهم المجتمعات المختلفة، سواء المتحضرة المتطورة أو البدائية، وأكثر تلك السلبيات زالت بفعل تطور الثقافات، وبناء المدارس واندماج تلك القبائل حديثاً بالحضارة المتقدمة والعلوم الإنسانية.

وسكناها في بيوت تتوفر فيها جميع الخدمات الأساسية... ويبدو ذلك بوضوح في جميع دول الخليج العربي... والدول العربية...أو أطراف البوادي حول المدن.

للعلم فقط:

(الشخوص والأسماء وهمية ليس لهم مصدر من الواقع سوى تشابه الأسماء).

الرواية حكائية خيالية بعض أحداثها من أفواه رواتهم... وإن كانت تقترب من الواقع في بعض أحداثها، ولكن لا تبتعد عنه في المجمل.

كتبتها بحكم موقع منطقتنا الجغرافي على أطراف البادية، وبالذات قرانا المجاورة لأماكن تنقلاتهم، والاحتكاك الدائم واليومي بيننا وبينهم في القرن الماضي... واليوم الجميع شركاء في الحياة على تلك الأرض... أرزاقنا وأرزاقهم متداخلة... هم مهنتهم الرعي... وأهل المنطقة مهنتهم الزراعة...

المقايضة دائمة بين الجهتين... والمصالح مشتركة، فلا يمكن عزل واحدة عن الأخرى... هم ولهم بقية كانوا في الصيف يستوطنون أطراف القرى للرعي فيما يتبقى من حصاد السهول، ويبتاعون ويبيعون حاجياتهم في حوانتيت القرى المجاورة... وأهل القرى يرسلون في فصل الربيع إلى مناطقهم بعض أفرادهم... يستصنعون خيرات مواشيهم في مناطقهم، بمصلحة مشتركة تسمى (العُزْب) في مناطق البادية والصحاري، مثل (الأصفر والزلف والنمارة والرصيعي والسبع بيار وغيرها)، حيث تظهر هناك المشاركة الحقيقية في أمور الحياة المعيشية بين الجميع.

وإليكم من حكاياتهم ما يروى من أفواههم... وما زيّن أمسيات الجميع أثناء السهرات الطويلة... نردد ما سمعنا منهم في السهرات في بعض لياليا الشتوية الطويلة... كما شعراؤنا مازالوا حتى اليوم يتغنون بقصائدهم الحماسية والعاطفية... أكثرها على الربابة في أغلب الأحيان، ونُقلت تلك الروايات فيما بعد ضمن أفلام سينمائية أو مسلسلات تلفزيونية، أو برامج صوتية عبر بعض الإذاعات العربية.

****

شخصيات الرواية	
1	**قبيلة الشيخ صابر**
	فارس: ولده
	شيماء: ابنته
2	**قبيلة الشيخ سميحان**
	سميحان: ولده
	حسنا: ابنته
	جزاع: ابنه الأصغر
	الطفل زيد
3	**قبيلة الشيخ حمود**
	سعدة: أرملة أحد أقارب الشيخ.
	عواد: اختُطف طفلاً وتعايش مع أسرة الشيخ حمود.
4	**قبيلة الشيخ مناور**
	الشيخ مناور
5	**قبيلة الشيخ عبد الله**
	سالم: عاشق لشيماء.

الفصل الأول

سعادة غامضة

مع هبّات نسيم ناعمة عصر ذات يوم... وقد أوشكت آخر ساعاته تنذر بالرحيل، وصلت القافلة القادمة من البعيد، البعيد جداً، وبعد مسيرة طالت أكثر مما كان مقدراً لها، ولاكن لا أمان لبادية قفراء.

نحن الآن في نهاية فصل الربيع، الذي أخذ يلفلف آخر أيامه ويخفي آخر ما تبقى من مظاهره الجميلة، راحلاً حاملاً معه جمال طبيعة الصحراء الساحرة في مثل هذا الفصل من كل عام... ها هو الربيع بدأ يفسح المجال قسراً لصيف يدفع به مجاهداً بحره كي يأخذ مكانه، ويجلب مع أيامه الطويلة حرّه وغباره، وليقدم رونقاً لا يتعدى أكثر جماله في خداع سرابه الكاذب، وما يحمل من لطفٍ بائس ليس فيه أكثر من لسع الغبار في وجوه أولئك المسافرين، القادمين من أقصى شمال البادية السورية ووجهتهم جنوبها... وها هي العواصف تحتجز قافلتهم اليوم حوالي نصفه بهجماتها القاسية ونفحاتها العجولة على قوم ملّوا طول السير المضني، في صحراء ملّت هي الأخرى سكون الربيع الهادىء، وها هي حبات الرمل التي تشكلت منها الكثبان، ملتّ البقاء ساكنة، فتكومت تنتظر أن تغير مواقعها بعد صبر طال شهوراً كانت خلالها خاملة، فنهضت تداعب المسافرين بدغدغة ممجة لوجوههم وتضرب ذراتها المؤلمة في كل ما تعرى من أجسادهم...

وداخل ذلك الهودج الوحيد الذي يتوسط القافلة فتاة حالمة، لم يكن الصبر سهلاً عليها... إنها "حسنا" فاتنة القبيلة التي يضمها الهودج، وتسير ناقتها في وسط القافلة برفقتها وصيفتها... يحرس القافلة أبناء عمومتها، وأبناء عمومة فارس عريسها... حسنا فتاة متلهفة بصبر فرغ، وشوق يتزايد كلما قيل لها إن القافلة تقترب الوصول من ديار لا تعرف فيها أحداً... حلم سعادتها ليس أكثر مما وصف لها الأهل من طيب عرق يحمله أقارب قبيلتها التي ستحل فيها... أهل منزلها الجديد، تصور شكل الشاب الصغير فارس... أبن شيخ القبيلة الشيخ صابر، الذي ينتمي إلى أحد أفخاذ القبيلة نفسها الأقرب إليهم... هذه القبيلة التي تعتبر من أكبر قبائل بلاد الشام على الإطلاق... أفخاذاً وعدداً، وأكثرها شهرة وأوسعها انتشاراً في بلاد الشام والجزيرة العربية (قبيلة بني عنزة أو الْعْنِزَة كما يُطلق عليهم بلهجة البادية)... تلك القبيلة المشهورة بكرمها وطيبها، وتمسكها بالتقاليد العربية الأصلية... التي كانت وما زالت تمتد في موطنها ما بين الدول العربية اواقعة في آسيا التي فككها الاستعمار الغاشم... الفرنسي والإنجليزي في مرحلة متأخرة عن روايتنا هذه ومزقها إلى دويلات صغيرة... ثم أطلق على تلك الأجزاء مسميات اختارها هو.

وهنا لا بد من توضيح بعض تلك النقاط كي يطّلع القارئ العربي الذي يتجاهل اليوم وحدة أرض أجداده... والأجنبي الذي يجهل ما أورثه استعمارهم على أمتنا من أذى بتقسيم أرض لا يملكها.

لمحة بسيطة وعامة

ولكل من يقرأ وفي أي مكان من العالم هذه الرواية إذا قدر لها أن تنتشر عالمياً، ولمن يجهل تاريخ هذه المنطقة التي كانت موحدة تحت مسمى الشام... أو بلاد الشام، أو بادية الشام، أو البادية السورية:

تدور أحداث روايتنا قبل أكثر من قرن من الزمان، قبل الفترة التي تقاسمت خلالها الكعكة دولتان، أقل ما يقال عنهما إنهما من أكبر دول الاستعمار القديم: فرنسا وإنكلترا، اللتان تقاسمتا فيما بينهما المنطقة التي تدور أحداث روايتنا فيها، وهي الممتدة على طول الساحل الشرقي المتمدن للبحر الأبيض المتوسط، ثم البادية بمعاهدة كانت من أسوأ ما كتب التاريخ عن الاستعمار الفرنسي والإنجليزي، وهي معاهدة سايكس-بيكو... وقبل أن ندخل في أحداث الرواية أطلب من القارئ، أن يقرأ هذه النبذة السريعة.

بلاد الشام التي نذكر: هي بالأصل المنطقة الجغرافية الواسعة التي تتمثل فيها اليوم (سوريا، لبنان، فلسطين، وتمتد شرقاً إلى الداخل في البادية لتضم الأردن، وجزءاً من الشمال الغربي لشبه الجزيرة العربية، كمناطق سكاكا

والجوف، كما كانت تصل جغرافية سورية الطبيعية قديماً حتى بلاد الرافدين...). لم يكتفِ بعدها الاستعمار بفعلته، بل قام بتقسيم سورية الحالية نفسها إلى عدة دول كما ذكرنا بإنشاء دولة لبنان الكبير، واقتطاع أجزاء كبيرة من الشمال السوري، وضم تلك الأجزاء إلى تركيا مثل لواء إسكندرونة وأضنة وماردين وديار بكر وعنتاب... إلخ.

طبعاً نحن هنا لسنا في وارد السياسة، ولكن كي نقدم رواية إنسانية تحمل الكثير من طابع البادية الحقيقي... فيها من المآسي والأفراح الكثير، ولا علاقة لها بالسياسة، ومن المعروف أن الجراح لا تؤلم سوى الجريح، والوجع لا يحس به إلا من أصابته علة.

ولا حجة لنا بالإطالة، لذلك وجب علينا الآن العودة فوراً إلى أحداث روايتنا.

نعود الآن إلى أولئك الرجال القادمين الذين يقودون قافلة العروس حسنا، وهم أبناء عمومتها كما نوهنا من قبل، أولئك القاطنون خلف تلال بعيدة ونائية عن ديار عريسها فارس ابن الشيخ صابر، شيخ هذه القبيلة التي ستدور فيها بعض أحداث روايتنا، جاؤوا من ديار الشيخ سميحان وجميعهم

من أصول عربية يتوزعون في جميع الأراضي، وينتسبون إلى أفخاذ القبيلة نفسها... الأقرب نسبهم إليها.

بدأت الفرحة تغمر جميع الأفراد الذين جاؤوا مع القافلة، سواء العائدين معها نحو ديارهم أو المرافقين لها من ديار حسنا.

وها هو خبيرهم الرجل المرافق لقافلتهم... أو كما يسمى بلهجتهم البدوية (الدلول) ويسمى كذلك القصاص، أو قاص الأثر... وهو الرجل الخبير الذي تنحصر مهمته بمرافقة كل قافلة تستعين به حين تسير في الصحاري أو البوادي... ها هو قد وقف الآن على تلة عالية يصيح بأعلى صوته، ويبشرهم بأن مضارب الشيخ صابر لاحت له... وها هي العروس حسنا... لم تعد تفارق شفتيها البسمة، وقلبها الفرحة عندما سمعته مبشراً يعلن اقترابهم من ديار الشيخ صابر... وإن بقيت تلك البسمة مشوبة بقلق ورهبة لا تدري المسكينة مصدرهما... حسنا... الصبية التي بدأت تدخل في المجهول... لا تعرف أحداً من أفراد قبيلة عريسها، ولا تعرف عن عريسها فارس سوى ما حببته إليها أمها، وما أشاد به أبوها ورغبها فيه أعمامها.

الآن يدور حول القافلة جواد يمتطيه شاب له غرض آخر يهمز جواده العربي الأصيل بقدميه بلطف وحنية... وفي الوقت نفسه، عقله يهمز يده

فتلوح بحركة رتيبة بخيرزانة رفيعة بين الحين والآخر... لترتفع الخيرزانة قليلاً ثم تهوي على رقبة الجواد بلطف شديد وكأنه يداعبه ولا يسوقه بها.

الجواد يتراقص تحته بحركات متزنة وكأنه يعرف دلال صاحبه له فيعرض جمال تكوينه...

كما توحي حركات الشاب للناظرين بزهو الشباب وكبرياء القوة، فتضفي عليه نوعاً من الجدية والاعتزاز بالنفس... لكن هذا الشاب الجاد لديه ما يشغل فكره، فمن القبيلة نفسها التي ستصل إليها حسنا أخته لن يعود فارغ الوفاض... أمامه عروس ذاهب لأجلها... العروس هي شيماء ابنة الشيخ صابر أخت فارس، الفتاة التي لم يسبق له هو أيضاً أن رآها من قبل... ومع هذا جاء فقط كي يعود بها على أي حال.

اسم هذا الشاب سميحان ابن شيخ القبيلة التي قدم منها... جاء مرافقاً لأخته عروس فارس التي تركب الهودج الآن، جاء مع من جاء من قبيلته من أقاربه، كأخيه هزاع وبعض أبناء عمومته وكبار رجالها ليعودوا بشيماء عروساً له أيضاً... وتُعرف طريقة الزواج تلك في البادية التي لا يرفضها الشرع (زواج البدائل). أي أن كل شاب يتزوج أخت الآخر... وفي مثل هذه الحالة يرفع المهر عن كاهل الطرفين.

أما هناك في مضارب الشيخ صابر، فقد كان ولده فارس ينتظر وصولهم على أحر من الجمر مع أفراد قبيلته من رجال ونساء، لم يكن يستحوذ على تفكيره في تلك اللحظة أكثر مما يتخيله من شكل تلك العروس، وشخصيتها وجمالها... وكما قلنا جيء بعروس لفارس لم يسبق له رؤيتها من قبل ولا هذا يعرف من جاء لأجلها... وأما الفتى فارس، الفتى الذي أراد والداه تزويجه مبكراً... واختاروا له فتاة من عمره تقريباً، هي ابنة أحد شيوخ قبيلة تسكن أطراف البادية... علماً أنّ الفتى ما زال حديث البلوغ... نعم هو فارس... اسمه فقط... باسمه فقط، وليس فارساً للخيل كما يوحي لنا اسمه... إنه فتى صغير في السن، لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، لكن والده أصر على تزويجه فور أن بلغ الحلم، ليجعل منه رجلاً، وكي يشتد عوده على تحمل المسؤولية... وهي عادة متبعة لدى أهل البادية منذ القدم... القصد منها التكاثر وزيادة عدد أفراد القبيلة لقضاء مصالحها من رعاية للأغنام، والدفاع عنها وحمايتها في حال تعرضت لغزوات من قبائل أخرى في زمن لا يسود فيه قانون سوى قوانين العشائر وزعماء القبائل والغزو والثأر.

بعد مشاق أيامٍ كثيرة وليالٍ طويلة مرت على الجميع، وصلت القافلة إلى مشارف البيوت مع عروسهم وعدد من أهلها من نساء ورجال، وبينهم العدد الأكبر من فرسان قبيلتها، أما ما كانت تحويه القافلة فكان عدا عن أهلها، كذلك مثلهم من الرجال المرافقين للقافلة من قبيلة فارس.

ما إن اقتربوا ودنو من منازل الشيخ صابر، حتى لكزت مجموعة من الخيالة خيولهم تطارد الريح بأقصى سرعة، ليعلنوا عن وصول القافلة بعد أن ملّوا من المشاق بين السير والتوقف والانتظار أياماً طوال.

أخيراً وصلت قافلة عروسهم ومعها سميحان العريس القادم لابنتهم... تراكض الرجال والنساء وبدأت مراسم استقبالهم بالزغاريد والنقر على الدفوف والغناء من قبل والنساء، وإطلاق الرصاص والضرب على الطبول والدبكات الشعبية من قبل بعض الرجال... ووقفت فرقة من بعض الرجال يستقبلونهم بالأهازيج والحداء... ووقف الشيخ ورجاله يهللون ويرحبون بقدومهم.

حلّ الضيوف من رجال ونساء قبيلة العروس حسنا ضيوفاً على أبناء عمومتهم...وحلت العروس نفسها ضيفة على حريم الشيخ أبي فارس شيخ القبيلة قبل أن تزف إلى فارس.

كما حل سميحان عريس شيماء ابنتهم ضيفاً عزيزاً على أحد أقارب الشيخ هو ومن معه لإتمام مراسم الزواج والسماح له بأخذ عروسه مع القافلة نفسها بعد أيام.

في اليوم المقرر لزفاف فارس جيء بالعروس إلى خباء الزوجية لتنتظر عريسها فيه كعادة أهل البادية المتأصلة والمعروفة عند القبائل العربية.

بَعد وصول حسنا، تم تجهيز شيماء عروس سميحان للرحيل بصحبته إلى دياره مع من جاء من قبيلته، ومع فجر اليوم الثالث انطلقت قافلتهم يرافقها بعض فرسان الشيخ صابر لوداعهم على بعد مسيرة نصف نهار... ثم بعد وداعهم العروسين تابعت القافلة سيرها نحو ديارها.

لنترك قافلة شيماء تسير بكنزهم الثمين باتجاه قبيلتهم والعروس تركب الهودج نفسه الذي كانت حسنا تركبه قبل يومين عندما جيء بها عروساً لتزف إلى فارس... نعود قليلاً لنتابع أحداث قصتنا التي تدور في قبيلة فارس وأهله، بعد وصول عروسهم حسنا.

أقيمت الاحتفالات لليوم الثالث في ديار الشيخ صابر على التوالي لزفاف حسنا وفارس.

وكما هي العادة عندما تكون العروس قادمة من مكان بعيد، تبقى ضيفة لأيام بين نساء القبيلة، ثم تزف بعدها إلى خباء عريسها برفقة ماشطاتها وبعض النساء المتخصصات بتجهيز العرائس، استعداداً لدخول عريسها عليها...

غربت الشمس وحل الليل، وظلت تعابير الفرح قائمة لا تنتهي أمام العريس وشباب القبيلة، من إطلاق للرصاص الكثيف، فيتجاوب صداه في أنحاء الفضاء، ويتشارك بأزيزه مع قرع الطبول وعزف المزامير.

وها هي الفرقة التي تزف العريس، تتوجه الآن بفارس إلى خيمته بعد أن سبقته إليها عروسه من قبل، يتقدمهم العشرات من شباب القبيلة يلعبون أمام موكبه بالسيف والترس، والقوم حولهم ما بين مصفق ومنشد.

اقترب هؤلاء من خباء العروس المنفرد عن بيوت القبيلة... المجهّز له ولعروسه مسبقاً، المنفرد على بعد عشرات الخطوات من منازل القبيلة، ليكون بيت المستقبل الجديد لهما... هذه الخيمة المنسوجة من شعر الماعز كغيرها من بيوت البدو، إلا أن هذ البيت بالذات نسجته أمه من شعر الماعز الأسود بالتعاون مع نساء القبيلة، والمختلف فيه أنها أدخلت في نسجه

خطوطاً بيضاء عريضة من صوف الأغنام الأبيض وأخرى بنية ورمادية من وبر الإبل ميزت بهم زينته لكونه بيت ولدها.

أما حسنا التي غدت في ديار جديدة الآن، وبينها وبين منازل أهلها مسيرة أيام طويلة وليال عديدة، فهي الآن جالسة تتلهى بذكريات طفولتها وصباها، وكيف كانت تنعم برؤية أهلها... تستعيد كيف وصلت إلى منازل أبي فارس مع من صحب قافلتها من الرجال والنساء، من أقارب الفريقين لحماية موكبها من مخاطر الطريق، وقد أُدخِلت إلى خيمتهما بعد راحة يومين كاملين بين نساء القبيلة لمساعدتها على ترتيب حياتها الجديدة والتأقلم مع أهلها الجدد.

واليوم كيف أركبوها فرساً بيضاء يقودها طفل صغير إلى باب الخيمة... تسير خلفهما فرق الطرب والدبكة التي تقوم بتقديم فعالياتها على بعد خطوات من الخيمة...

حل المساء، ووصل فارس مع رجال الفرقة التي تزفه إلى خيمة عروسه مع غروب شمس ذلك اليوم. ولمجرد دخول العريس خيمة عرسه... بدأ الصمت الرهيب، وتوقفت جميع مظاهر الفرح بما فيها إطلاق الرصاص لبرهة من الوقت.

مضت ساعة من الزمن... ثم قامت أم فارس بزيارة خاطفة لخيمة العروسين، التي كانت تنتظر بلهفة تلك اللحظة، وينتظرها أيضاً الأقارب بشوقٍ وترقبٍ...

الجميع الآن بانتظار خروج أم فارس... لم تتأخر، بل خرجت أمام القوم تزغرد وتحمل بيدها قطعة صغيرة من قماش أبيض تناولها من يدها أحد الأقارب بسرعة، ثم ربطها على رأس رمح، وعلى الفور تناولته الأم من يد حامله، ورفعته لتعلن إن ولدها دخل على عروسه وتزوج، ثم أخذت تزغرد وتلّوح بالرمح وقطعة القماش ترفرف في أعلاه ترسل لمن يرى تلك القطعة البيضاء الملطخة بدم عذرية عروس ابنها، رسائل تثبت للجميع إن عروسهم كانت عذراء وكان شرفها مُصان.

لحظات وبدأت أصوات الرصاص تلعلع من جديد، بينما الأم مستمرة بزغاريدها، تشاركها فرحتها جميع من حضرن من نساء القبيلة تعبيراً عن فرحتهن، وبين رقص وهزٍ ونقرٍ على الدفوف ضجت بها الصحراء، عاد الجميع إلى ساحة القبيلة لمتابعة سهرة الفرح وتناول طعام العشاء أمام بيت والد العريس، يتقدمهم قارعو الطبول ونافخو المزامير، كما ازدانت السماء بما تخلفه طلقات الرصاص الخطاط من ألوان مختلفة، فترسم معها

خطوطاً متشعبة في السماء... وفي الوقت نفسه ترسل للقبائل من المجاورة لهم ما يدل على أفرحهم، ولدعوتهم لتقديم التهاني والمشاركة، وفي الوقت نفسه تحمل تلك المظاهر إشارة لمن تصله الدعوة من القبائل المجاورة للمباركة في اليوم التالي، وحضور أفراحهم.

الفصل الثاني

الغزاة

استمرت سهرة الطرب هذه حتى ساعة متأخرة من الليل، لم يغادر جميع المدعوين المكان فوراً... بل بقي بعض أقارب العروس الذين قدموا مع ابنتهم إلى ديار أبي فارس، وفرض عليهم البقاء قبلها عدة أيام ضيوفاً على أقاربهم...

ظلت الأفراح قائمة حتى كاد أن يبزغ الفجر، وبعد الفجر بقليل انطلق أقارب حسنا في طريق العودة، يحملون شيماء في هودج بديلتها حسنا بعد أن أضاف جزاع إليه بعض الزينات...

ما أن بشرت الديكة بصباح يومٍ جديدٍ؛ حتى ودعوا قبيلة الشيخ صابر، متخذين طريق عودتهم نفسه، ورفضوا دعوتهم للبقاء بقية اليوم أو حتى ظهيرته لحضور مأدبة الغداء الكبيرة الذي دعيت إليه جميع القبائل القريبة ويسمى (قِرى العريس).

أما عريسنا فارس ففي أحضان حسنا... لا يعلم سوى خالقه كيف سيكون غده الآتي وما سيخبئ له القدر.

استيقظت حسنا على حركات مفاجئة لعريسها النائم... سألته:

_ ما بك يا فارس؟ ومع إنها الليلة الأولى التي تراه فيها أو تقابله، لهذا لم تُرفع الكلفة بينهما معه لتناديه بكلمات ناعمة وأكثر رِقة؛ وإن كانت تود ذلك من كل قلبها.

رد عليها فارس وهو يتثاءب:

_ سأخرج لأرى الأغنام إن كانت باقية في الزريبة... وأتأكد إن كان يوجد هناك من يخرجها؟

ردت بحياء ودلال:

_ وهل هذا وقته يا فارس؟ سيتدبر والدك أمرها... نَم الآن.

_ كلا يا حسنا، والدي تأخر في السهر الليلة الماضية، ومن المؤكد أنه لم يستطع مغادرة الحفلة قبل انصراف الضيوف والمدعوين. ثم أضاف:

اليوم سيجهز لحفلة القِرَى، وسيظل صاحياً بقية الليلة ليتابع الجزارين والطباخين حتى موعد الغداء وانصراف الضيوف.

_ نم... مع هذا سيتدبر أمره.

_ يا إلهي... ألا تسمعين ثغاء الأغنام؟! وأصوات الأجراس المعلقة في رقابها، وهذا ما يعني إن القبيلة أخرجت قطعانها، وانطلقت الآن في طريقها إلى المراعي.

_ ربما كان قطيعكم معها... وأمام إصراره، قالت: حسناً سأذهب معك يا فارس.

_ كلا ولماذا؟ اطمئني ما زال من الممكن أن ألحق بهم إن أسرعت إن كانت هنا حاجة لذلك... حين ذاك قد أكلف أحد أبناء عمومتي بضم قطيعنا إلى مواشيه... وإن لم أستطع اللحاق بهم سأوردها الماء من واحة قريبة أعرفها، ثم أعود بها لأضع لها بعض العلف مما يتوفر في الحضيرة هنا... اطمئني لن أتأخر عليك يا حسنا.

_ أتدري يا فارس...أحس بانقباض في صدري... وضيق في نفسي لاأدري لمَ!

_ لاحول ولا قوة إلا بالله العظيم يا حسنا... توكلي على الله فقط.

حاولت حسنا إقناعه لأن يغير رأيه، وأن والده لا بد أن يكون قد تدبر الأمر، أوعمل حسابه لمثل هذا الموقف... لكنه قال لها معاتباً، ومازحاً:

_ إنها الليلة الأولى يا حسنا! هل بدأنا نلقي الأوامر؟ إنه قطيعنا يا حسنا، أرزاقنا، مالنا...عجباً!

_ لم أقصد هذا... ولكن قلبي يشعرني بمصيبة يا فارس، أرجوك يا فارس... ومع هذا إن كنت مُصرّاً على الذهاب دعني أرافقك.

منعها من مرافقته وفشلت معها شتى وسائل الغنج والدلال... رفض اصطحابها رفضاً قاطعاً، وحَسناً فعل... بزغ فجر فارس ولا يعلم سوى الله ماذا سيكون وراء هذا الفجر!

ترك فارس عروسه في خبائها وذهب إلى الحظيرة فأخرج قطيعه منها... لشد ما أزعجه بومة فرّت عن حائط الزريبة ترفرف بجناحيها وتزعق بصوتها المشؤوم، جعلته يتطير منها، ومن نعيقها، الذي يكرهه جميع أهل البادية ويعتبرونه نذير شؤم... لم يبالِ، ليس في طريقه مالايتوقعه... المكان آمن وقريب.

مع هذا اتجه بالقطيع إلى مكان قريب لا يؤمه أحد في مثل هذا الوقت بسبب قلة الكلأ وشح الماء في تلك الواحة... كان يأمل أن يرعى القطيع أثناء ذهابه إلى الغدير شحيح الماء، ثم يعود به بعد أن يورده منه كاد أن يجف في

هذا الفصل، بعد أن كان ممتلئاً بالماء في فصل الشتاء والربيع... ويعرفه وكان قد مر قربه منذ أيام، ولاحظ أنه ما زال يحوي بعض الماء، قد يكفي ليورد القطيع عليه... وقد تركته بقية القبيلة لأنه لا يقضي حاجتها تماماً.

كانت غايته أيضاً أن يستفيد القطيع من الرعي في الذهاب والإياب خلال الطريق، ثم بعدها يعود به إلى الحظيرة، ولن تستغرق تلك العملية أكثر من ساعتين... وكان للقدر ما لا يحتسب وللطبيعة رأي آخر.

اقترب فارس من الغدير، تمعّن جيداً ببومة أخرى واقفة على حافة الغدير وأرجلها متشبثة بحجرٍ مرتفع قليلاً كانت عليه، تقاوم نفسها كي لا تسحبها الرياح... وذلك ما زاده شؤماً على شؤم.

استعاذ بالله وقذفها بحصاة ليطردها من أمام عينيه... لم تنتظر بل طارت ببطء تقاوم الرياح... ثم حطت بمكان ليس ببعيدٍ، وصوت نعيقها يسابق طنين الأجراس النحاسية المعلقة برقاب بعض النعاج في القطيع، تعوذ بالله من الشيطان الرجيم من جديدٍ وتابع سيره.

أخذت الرياح تشتد وتساعد في دفعه إلى الأمام فتسهل له سيره! أخذ يفكر بصعوبة العودة بسبب مقاومة الرياح المعاكسة لسيره في الطريق أثناء عودته، بعكس سهولتها الآن.

كم تمنى لو كان الأمر معكوساً... لكن للحظ أيضاً ما لا يُقبل... هذا ما حدث في طريق العودة.

لا بد من عودته الآن... أحنى رأسه قليلاً ليتقي العواصف التي تحمل مع هباتها حبات الرمل الناعمة

لكنها أخذت تشتد وتضرب وجهه، وتلسع كل ما تعرى من جسده، ولأن فكره كان مشغولاً بعروسه، لم يكن يأبه بها كثيراً... بل أن ما أزعجه هذا التأخير المفاجئ الذي لم يكن في حسبانه.

لفَّ كوفيته البيضاء الجديدة حول رأسه، ثم سار بخطوات متثاقلة فرضتها ضراوة العاصفة، التي أخذت تشده وتدفع به إلى الوراء بعنف...

رفع رأسه قليلاً كي يستكشف طريقه... نظر من خلال الغبار الكثيف؛ لاحت له في البعيد موجة أكثر كثافة من الغبار، قادمة تتجه بسرعة نحوه... للوهلة الأولى لم يحدد مما تتشكل السحابة... أخذ يتساءل:

هل هي ناتجة عن امتداد للعاصفة؟ أم هي زوبعة كعهد المنطقة بالزوابع في مثل هذا الفصل... أم أنها ناتجة عن خيول تتسابق... تملكه الرعب وأخذ يحادث نفسه:

_ لا بد أن تخفي هذه السحابة من الغبار شيئاً ما وراءها تماماً، فتمنع الرؤية لما خلفها... مع خوفه ورعبه تابع سيره... لكن السحابة تتقدم بقوة باتجاهه...

نظر إلى قطيعه الذي بالكاد يستطيع السير أمام إصرار العاصفة على دفعه إلى الوراء... وهو لا يستطيع أن يقضم شيئاً من أعشاب الأرض، لكنه في النهاية حمد ربه لأنه أورد القطيع ووجد ما يكفيه من الماء، في تلك البركة الصغيرة الضحلة المتبقية من أمطار الربيع السابقة... أوقف سير القطيع نهائياً، وجلس قليلاً على الأرض، ثم انبطح ولف يديه حول رأسه ليقي وجهه، وأخذ ينظر في البعيد يحاول أن يستنتج سبب تلك السحابة الكثيفة من الغبار وهي تقترب، لعلّه يعلم ما تخفيه خلفها... لكن دون جدوى.

وبصعوبة تمكن من الصعود إلى هضبة صغيرة، وأخذ بين الفينة والأخرى يتلثم بكوفيته البيضاء الجديدة ويدعو لوالده بالخير على هذه الهدية، والتي لولاها لكانت ضروسه تطحن الرمل.

ها هي الآن الرياح المحملة بالرمال تزيد من سرعتها كثيراً، حتى أصبحت تمنعه حتى من وضوح الرؤية، وبما إن مصدر السحابة الكثيفة مجهول

السبب، ومن المستحيل أن تكون زوبعة صحراوية بسبب العاصفة الشاملة... عندها أصبح على قناعة أن وراءها مجموعة من الغزاة... دبَّ الرعب في قلبه...

ففي ذلك الزمان كانت قبائل الصحراء تتخذ من الغزو والسلب، فيما بينهم عادة لا تُنكر، ولا تعتبر عاراً بالنسبة لهم، بل يجدون فيها شجاعة وبطولات؛ تؤرخ بالقصائد والأغاني فتبقى في سجل الذاكرة من جيل إلى جيل. (وقد تطرقت في المقدمة إلى إحداها)

أخيراً وصلت موجة الغبار الكثيفة... لكنها تجاوزته بسرعة، ويا لهول ما تركت! تركت خلفها مجموعة من الفرسان الملثمين تماماً، لا يظهر من وجوههم سوى أعينهم... يتفاهمون بالإشارات... ويحملون السيوف والرماح... التف بعضهم حول القطيع وهشوا له، وساقوه أمامهم إلى المجهول. أما الباقون فاتجهوا نحو فارس يدورون حوله بخيولهم... ويبثون الهلع بقلبه البريء!

حارالغلام ابن السادسة عشرة عريس الأمس فقط، ماذا يفعل؟ لقد رأى أن المشكلة أكبر من طاقته... لابد له من التصرف... خلع كوفيته وأخذ يلوح بها طالباً النجدة من قبيلته... ولكن وا أسفاه أين من يسمع أو يرى؟! بل أين من يرى كوفيته التي يلوح بها؟! والمسافة بينه وبين المنازل محجوبة بالغبار الكثيف. تدور به رياح عاصفة.

المسافة التي قطعها مع القطيع أطالت بزمنها العاصفة التي تضرب بوجهه... أضف إلى ذلك تكاثف الغبار وما تحمله الرياح من رمال! وعدم وضوح الرؤية لأكثرمن عشر خطوات أمامه... حار بأمره! لم يره أحد ولم يسمعه أحد!

بقيت خطوات ويصل إليه أحد هؤلاء الرجال... يرى ويفهم من تصرفاتهم ما يقصدون... ها هي نواياهم تكشفت منذ البداية عندما باستيلائهم على قطيعه... لا يخفى الشر والسلب فهو بادٍ في أعمالهم...

للحظة وبفورة وحماس الشباب... استبسل فارس... قفز نحو أولهم، وأمسك به من رجله التي كانت خارجة عن الركاب، ثم جذبه نحو الأرض الذي كان في الوقت نفسه يتأرجح على حصانه...

أثمرت فعلته، وسقط الرجل عن جواده، وسقط فارس فوقه وبدأ يتلمس الأرض بيده لعله يعثر على حجر، وكان له ما أراد؛ رفع الحجر ليلكم وجه الغازي... لم تفت الحركة التي قام بها فارس الغزاة.

اقترب من فارس بسرعة البرق، وضربه بهراوة يحملها بيده فسقطت على أم رأس فارس المسكين... ضربة أفقدته الشعور والحركة، وتركته طريحاً على الأرض بين الحياة والموت.

أعجبني تبادل الثلاثة الباقون، النظرات فيما بينهم متسائلين ماذا سيفعلون بهذا الغلام؟ هل يتركونه في مكانه كما هو؟ هل يجهزون عليه؟ إلا أن كبيرهم أشار عليهم أن يحملوه معهم...

انتهت المعركة البسيطة بأسرع مما بدأت، ولم يبقَ على الأرض ما يدل على ما حدث سوى كوفيته البيضاء التي كان يلوّح بها عندما أفلتت من يده بعد أن أغمي عليه من شدة الضربة، حتى الكوفية لم تصمد في مكانها طويلاً، فهربت مع الهاربين لكن بعكس اتجاههم... بعد أن تركت نبتة صحراوية كانت قد علقت بها لحظات، ثم غادرت مع الرياح تبحث عن شجيرة أخرى في البادية المترامية الأطراف، علّها تتمسك بها خوفاً من هول ما رأت.

غادر القُوم (بضم القاف... لهجة أهل البادية) بأسرع ما جاؤوا، هذه التسمية كانت تطلق على من يقومون بمثل تلك الغزوات في غابر الزمن، وبقيت عادة الغزو هذه سائدة حتى نهاية العهد العثماني (وللتذكير كان يقال للغزاة قُوم في بعض الأماكن من بادية الشام)

لنترك بعض أولئك يسوقون أمامهم القطيع المسلوب... بينما رفاقهم الآخرون يحملون فارس على ظهر أحد خيولهم... يثبته أحدهم أمامه على حصانه... يسيرون مسرعين بما فازوا به من سلبٍ ونهبٍ.

نعود الآن إلى عشيرة فارس... وإلى حسنا عروسه التي تركها قبل ساعات... ظهر القلق على وجهها وبدأ قلبها يخفق خيفة من مجهول مرعب كانت تنبأت به في الصباح...

ملّت الانتظار، والترقب... تأخر فارسها عليها... أضحت الشمس وكاد النهار أن ينتصف.

جلست حسنا أمام خيمتها تتكهن بما أخر فارس! ولم يتركها القلق من شر تتوقعه يعبث بأفكارها، من مكروه ما حدث لعريسها... لم تبالِ بالعاصفة الرملية التي تكاد أن تعمي الأبصار وتمنع الرؤية على بعد عشرات الأمتار... التفتت إلى جهة منازل أهل زوجها حائرة كيف تتصرف؟

ومن خلال الغبار الكثيف، لاح لناظريها شكل امرأتين قادمتين نحوها... لم تميزمن هما للوهلة الأولى؟!! لكن ما إن اقتربتا حتى عرفت من بينهما حماتها أم فارس، فما كان منها إلا أن دخلت الخباء وجلست تنتظر دخولهما بقلق، والدموع تنهمر من عينيها! سألتها أم فارس:

_ ما بك يا بنتي؟ وما الذي يبكيك؟ وهل أغضبك ولدي؟ أين هو؟

_ كلا يا أماه... ظننت أن فارس عاد إليكم.

_ فارس... عجباً يا بنتي! إلى أين ذهب؟! ولماذا؟ إنها ليلته الأولى... عجباً!

_ لا أدري... ولكنه قبيل بزوغ الفجربقليل قال لي:

_ سأذهب لأستودع القطيع أحد أبناء عمومتي، وإذا لم ألحق بالرعاة، أورد القطيع الماء بنفسي، وربما أرعى به أثناء العودة... ثم أعود به. لكنني ظننت أنه مرَّ عليكم بعدها.

_ لا يا بنتي لم أرَه... وحسب ما سمعت من أبي فارس بأنه كلف حمدون ابن أخيه بالمهمة!

_غريب يا أماه إذاً ماذا حدث له؟

هنا انفجرت أم فارس باكية وأخذت تصيح وتستغيث... ثم رمت نفسها على الأرض تنوح وتبكي وتنثر التراب على رأسها، وتشق ثوبها حزناً عليه كعادة أهل البادية... تندبه وتقول:

_ يا إلهي... ابني... ولدي! أين هو؟! وأخذت تولول وتشير بكلتا يديها إلى الأعلى تناجي ربها أن يعيده إليها.

قلبت الطبق الذي كانت قد وضعته على الأرض لدى وصولها وعليه العديد من أصناف الطعام.

قادمة به كفطور (صباحية) للعروسين... ثم وقفت فجأة وأخذت تجري نحو المنازل وتصيح باسم ولدها...لم تنقطع ولولتها واستغاثتها، ولسانها يهذي باسمه:

_ فارس ولدي، أين أنت يا ولدي؟ ما إن اقتربت من الخيام حتى سمع صوت عويلها وصراخها وهي تندب ولدها.

خرج كل من سمع صوتها من أفراد القبيلة، وأخذوا يلتفون حولها، ويستفهمون عما جرى أو يجري في القبيلة؟! فأخبرتهم بما قالت حسنا لها... هرع الجميع نحو خيمة حسنا راكضين لعلّ الصورة تتضح لديهم أكثر عما جرى لفارس.. أما المسكينة عروستهم... ما إن رأت الجموع قادمة تجري نحوها حتى خارت قواها ودبَّ الرعب في قلبها، وأخذ فكرها يعمل بسرعة... تحادث نفسها وإن كانت غير مستغربة لقدومهم وجريهم نحوها وتقول:

_ ترى هل سيتهمونني بشيء عن مصير فارس؟ هل عثروا عليه ميتاً؟ هل سيطردونني من بينهم؟ هل سيقولون بأن وجهي هو من جلب الشؤم لهم...هل.. هل... الخ؟؟

وصلت الجموع وانبرى أبو فارس يسألها بأدب ولطف عن التفاصيل... عندها اطمأنت عن نفسها ومصيرها بينهم. أخبرتهم بدقة عن الحديث الذي دار بينها وبينه قبيل الفجر، وكيف خرج وهو على أمل أن يعودة بسرعة إن استطاع اللحاق بأحد أبناء عمومته، وإن لم يستطع سيورد القطيع الماء، ثم يعود ليضع للقطيع العلف من المخزون لديهم.
أخبرتهم بما قال، إنّ غيبته لن تطول وسيرجع مباشرة إلى هنا، وأخبرتهم كيف عرضت عليه مرافقته، لكنه لم يسمح لها... ترقرقت الدموع في عيني أبي فارس حزناً على على هذا الموقف وغياب ولده، وتقديراً لنخوته واهتمامه بالتخفيف عنه دون أن يتوقع منه ذلك، وهو عريس في ليلته الأولى... مع العلم أنّ أبا فارس كلف حمدون ابن أخيه بالأمر، لكن المذكور لم يقم بتلك المهمة حتى الآن! ولا يدري لماذا لم يفِ بوعده؟!!

عندها طلب الشيخ صابر من الجميع أن تذهب مجموعة كبيرة من الرجال للبحث عنه، وأن يتجاهل جميع من في القبيلة كل شيء عند حضور الضيوف ظهيرة اليوم، لا بد من إتمام حفل الغداء دون أن يعرف الضيوف ما الذي حدث...

حان لنا الآن من أن نتابع رحلة سميحان وعروسه في طريق عودتهما المحفوفة بالمخاطر والعوائق وما تخفيه الصحراء من مفاجآتها الكثيرة المرعبة.

الفصل الثالث

عروسٌ في الصحراء

لم يكن يُسمع في هذا الجزء من البادية المترامية الأطراف سوى أصوات حداء رجال القافلة التي تعبر منذ يوم أمس الوهاد... يسيرون على طريق غير واضح المعالم، فتطغى أصواتهم على أصوات حوافر الخيل والبهائم وتضيع أصوات خفوف الجمال على الأرض الحصباء، فتخفيها عن آذانهم أيضاً موجات هبوب الرياح الحارة التي كانت تهب على وجوههم، ثم تلتف حولهم...

يؤنسون أنفسهم بالأهازيج التقليدية الموروثة عن آبائهم وأجدادهم، التي تروي في معاني مقاطعها سِيَر غزواتهم، وانتصاراتهم على أبناء جلدتهم ليس إلا في ذلك الوقت... لم يكن لهم أي دور في الحروب الخارجية مع العثمانيين أو التطوع أو الالتحاق بخدمة جيوش الدولة العثمانية التي كانت تفرض سيطرتها على المنطقة ككل... بل أن مفازات البادية الرهيبة التي كان شبابهم يتخفون فيها تخفيهم عن دورياتهم.

الرحلة طويلة جداً والطريق ممّلٌ... وراكبة الهودج في داخله تدندن بألحان لا تكاد تسمعها سوى وصيفتها المرافقة لها ضمن الهودج لتقوم بخدمها... تبكي أحياناً ذارفة الدمع بغزارة؛ لكن حزنها لا يطول كثيراً فتعود لتبتسم ابتسامة باردةً عندما تتذكر عريسها الذي تقاد إليه رغماً عنها.

رضيت به حياءً وخوفاً من والدها، الذي وافق على تزويجها دون الأخذ برأيها أو استشارتها على الأقل... تحاول أن تصنع للعريس بفكرها أجمل الصفات التي تتمناها فيه، ولكن مع سعة تلك الابتسامة، ومع رضوخها لأمر أبيها، ظل يبدو على محياها شبح تساؤلات كثيرة... إنها لا تعرفه، ولم تقابله من قبل ولم تسمع به قبل خطبتها، ولكن الجميع امتدح شبابه وفروسيته وأخلاقه... وقد علمت بأنه جاء مع أخته حسنا وبعض رجال قبيلته خاطباً وطالباً يدها، وفي الوقت نفسه مزوجاً لأخته حسنا لفارس، وإن كانت هي الأخرى لا حول لها ولا رأي، ولكن أهل قبيلته كانوا يزكون لها أخلاقه وكرمه... المهم أن خطبتها عليه تمت، وانتهى الأمر بموافقة أهلها، فوالدها هو صاحب الرأي الأول والأخير، كغيره من الآباء في القبائل العربية.

كان ذلك منذ عدة أشهر أثناء خطبتهم لحسنا... أصبحت اليوم مرغمة على ترك حبيب لها من قبيلة أخرى من بني عمومتها... عشقته كما يقال من النظرة الأولى، لكنها لم تعطه جواباً شافياً... ولم تجرؤ على التعبير عن حبها له، ولم تخبر كذلك أهلها بحب سالم، وما كان يجول في خاطرها.

اليوم أخذت تتذكر كيف كان لقاؤها الأول على الغدير مع سالم وهذا اسمه حين كان يورد ماشيته كالعادة... لكن علاقتهما لم تتعد البسمات

والنظرات المسروقة منهما، وزد على ذلك بعض الإشارات التي توحي بالرضى، والترحيب بتطوير العلاقة إلى زواجهما...

أخيراً تطورت جدياً تلك العلاقة، ووصلت بينهما إلى أن تدعوه إلى مقابلة أبيها لطلب يدها... وعدها سالم بذلك... لكن القدر لا يفهم بالتسويف ولا بالتباطؤ... فكان ما كان، وسبقه سميحان إلى خطبتها لنفسه فجأة... دون أن يدري بما تحمله من مشاعر لابن عمها! وقبلها كان فارس قد خطب حسنا أخت سميحان... عندما تم ذلك عن طريق أهلَيّ فارس وسميحان، دون استشارة أحد من الشابين أو إحدى الفتاتين.

في ذلك الوقت قرر كبيرا رجال القبيلتين الشيخ صابر أبو فارس، والشيخ أبو سميحان تزويج ابنتيهما حسنا لفارس، وشيماء لسميحان، وجاء اليوم الموعود، وتمت بعض مراحل الاتفاق...

اليوم لا بد لسميحان من العودة الى دياره وحده، ودون عروسه شيماء ابنة الشيخ صابر بعد أن تم تزويج أخته، يشتاق ويعجل ليجهز ما يحتاجه الفرح في دياره وبين أهله؛ قبل وصول شيماء ومن يرافقها من قبيلته... كان يخاف من مغبة اصطحابها معه والسير وحدهما في هذه البادية الشاسعة المترامية الأطراف.

الرحلة طويلة جداً، ولكن الضرورة تلزمه بذلك...
يعرف إن مخاطر الطريق كثيرة وأذاه أكبر... وأمامه معوقات مرعبة لا حصر لها... أهمها قطاع الطرق، زد على ذلك العواصف الرملية التي لاتكاد تنقطع في هذا الفصل... ومن أهم تلك المخاطر الضياع، وخطر الوحوش التي لا تعد ولا تحصى في البادية، ومنها أيضاً الأفاعي والعقارب السامة، لذلك لم يقبل المخاطرة بأخذ عروسه معه... كان من الممكن أن يتزوجها عند أهلها وهي عادة تلقى قبولاً في عرف القبائل... لكنه فضل أن يتم ذلك بين أهله وأقاربه، وحسم أمره أن ترافق عروسه القافلة... ربما تعيقه حمايتها في الدفاع عن نفسه وعنها، في حال تعرضهما لأي خطر، لذلك أوكل بها أقاربه لتعود مع القافلة... هم نفسهم الذين جاؤوا معه لخطبتها من والدها، وجلبوا معهم حسنا.

كثرت اعتراضات شيماء ورفضت سميحان عريساً لها... لكن كل هذا لم يتعد سرّها فقط، حتى أنها لم تجرؤ بالتصريح عن حبها ورغبتها بابن عمها سالم... تعلم أن والدها لن يقبل منها أي اعتراض بعد أن وافق على المبادلة بالعروسين، وبعدها مباشرة قرر سميحان العودة إلى قبيلته كما أسلفنا من

قبل... أما كيف تعرف على شيماء ابنة الشيخ صابر على الرغم من بعد المسافات؟ فذلك الأمر لم يكن مستحيلاً!

في عرف البادية ومنذ القدم كانت أهم وسائل الإعلام بين تلك القبائل، هم الشعراء... حيث كان الشعراء قديماً يتجولون بين القبائل يتكسبون بشعرهم ويرتزقون منه، ومن خلال إقامتهم المؤقتة أو الطويلة بين ظهراني القبائل التي يصلون إليها، يعرفون أسرار القبيلة الخاصة وما تحتوي بيوتهم من أرزاق وشباب وصبايا وكرم وبذل، ثم تتناقل تلك الأخبار عن طريقهم إلى القبائل الأخرى، وقد ذكر هؤلاء الشعراء شيماء في قصائدهم أمام سميحان، يصفون جمالها وصباها وأدبها وكرم نسب أهلها وطيب ملاقاتهم للضيف... بالمقابل الشيء نفسه لأسرار قبيلة الشيخ أبي سميحان، فقد ذُكرت حسنا بالجمال والخلق مع طيب قبيلتها لذلك رغب الوالدين بخطبتها وتزويجها لولدهما... وكان لا بد لسميحان من مرافقة القافلة مسافة، إلى حيث يرافق رجال الشيخ صابر القافلة لوداعهم ثم العودة بعدها.

حان وقت الرحيل كما أسلفنا، وركب سميحان جواده وانطلق مع القافلة... مصطحباً معه شقيقه الأصغر منه... واسمه جزاع لمرافقة العروس في القافلة والاهتمام بها أثناء سفرها ومساعدتها بعد تركه للقافلة، وبعد أيام قرر سميحان أن يترك القافلة، ويقطع بقية الطريق الطويل على جواده، لا يرافقه سوى شاب من قبيلته يدعى شهوان، وبالطبع غايته أن يسبقهم ويقوم بتجهيز متطلبات زواجه.

وهو يعلم أن المسافرمع القافلة يحتاج لقطع المسافة عدة أسابيع طويلة، خاصة مع قافلة كبيرة كهذه.

وللعلم كانت القوافل في ذلك الوقت كلما مرت على نجع أو تجمع للبداوة، ينضَمُّ إليها من كان في حاجة لسفرٍ أو تجارةٍ أوغيرها.

استطالت القافلة كثيراً وأصبح عددها بالمئات بين راكب على جمل أو دابة أو على جواد... أما سميحان الذي أمن عروسه مع أقاربه ضمن القافلة، فقد انطلق على جواده يرافقه شهوان ابن عمه على بغلة سريعة، قاصدين كما قلنا ديارهما بعد أن رافقا القافلة بضعة أيام... كان سميحان في عجلة من أمره ليُتم الاستعدادت لزفافه.

خرجت القافلة ذات صباح في مسيرها من مناطق الحصباء التي تتصف بها أكثر أراضي بادية الشام، ودخلت في حرّة مرعبة (الحرّة منطقة سيول بركانية وعرةٌ جداً توجد في بعض مناطق بادية الشام وفي منطقة مثلها قرب المدينة المنورة... ويهمنا منهم التي توجد جنوب سورية حيث تجري بعض أحداث قصتنا، وتسمى اللجاة... المنطقة عبارة عن سيول بركانية منصهرة منذ آلاف السنين... تجمدت حممها، بفعل الطبيعة ومرور الزمن على شكل كتل صخرية بازلتية متفاوتة الارتفاع) ومع اتساع هذه المنطقة كثيراً إنما تبقى الرؤية فيها محدودة جداً في جميع الاتجاهات بحيث لا تتعدى خطوات أو أقل، بسبب ارتفاع الصخور وتزاحمها، وتلوّي الممرات بينها وطرقها الضيقة الوعرة، كما لا يستطيع المرء رؤية أي شيء حوله سوى الصخور البركانية المتشققة التي يظهر عليها ثنيات سيول (اللافا أو اللابا) البركانية التي تبدو وكأنها أمواج ماء تجمدت أثناء سريانه... جميعها متنوعة الأحجام، والشيء الوحيد الذي لا يعجز الناظر عن رؤيته هو السماء من فوقه.

لذلك كانت تلك المعاصي مرتعاً خصباً لقطاع الطرق، وعصابات السلب والنهب والقتل، لكن المشكلة في هذا المكان أنه لا ينفع فيه أي نوع من المطاردة، فيستغل اللصوص معاصيها لعملياتهم... ولنخرج قليلاً عن

أحداث روايتنا... الجدير بالذكر أن المنطقة قدمت الكثير من الأمان والملجأ في القرنين الماضيين للثوار، عند مقاومتهم للاستعمار العثماني في البداية، والفرنسي فيما بعد، وربما اتخذت اسم اللجاة للسبب ذاته... المصدر (خطط الشام، محمد كرد علي ج2).

أرسل قائد القافلة رُسلهُ إلى الخلف لتنبيه الجميع بعدم الخروج من القافلة، أو الانفراد عنها، وإن القافلة بعد قليل ستتوقف وتقضي بقية النهار والليلة هنا للراحة، وإن لم يمضِ على دخولهم الحرّة، سوى بضع ساعات فقط... كما حذرهم من مغبة التوغل فيها كثيراً، وأوصاهم بالحرص أيضاً على عدم ترك دوابهم سائبة؛ لأنها ستضيع بين الصخور والنتوءات الصخرية... والمهم أن لا يغير أحد مكانه، والكل يجب أن يعرف من يسير أمامه ومن يسير خلفه، وإلا ضاع هنا ولن يفتقده أحد... فقد تجاوز طول القافلة بحساب تلك الأيام بضع مئات من الجمال وحيوانات الركوب.

أوشكت الشمس على الغروب، وكان لا بد لهم من قضاء الليل هنا كلّ في مكانه...

ما أن بزغ فجر اليوم التالي، حتى أصدر قائد القافلة أمراً إلى مساعديه بإبلاغ الجميع إن القافلة ستتحرك بعد وقت حدده لهم.

بدأت القافلة بالاستعداد للتحرك بركوب النساء على الجمال المناخة ودفعها للوقوف... وامتطاء الرجال خيولهم وبغالهم للسير مع الحرص واتباع الحذر الشديد... فالمكان خطير جداً، فجأة... سُمع هرج وصياح وضوضاء في منتصف القافلة... تجمع البعض حول مصدر الصوت الذي بدأ يعلو رويداً رويداً... كان الصوت يتوسل على جميع من حوله التوقف وتأجيل الرحيل قليلاً... بكلمات أقرب للبكاء منها للرجاء فيقول:

_ العروس ووصيفتها اختفتا وليستا في هودجهما... الهودج فارغٌ!

ظهر الخوف والقلق على وجه جزاع لكنه تذكر أمراً وهو أن الرجل الذي يقود الناقة التي تحمل الهودج أيضاً غير موجود، فقال:

_ دعونا ننتظر قليلاً... العروس ووصيفتها ليستا في الهودج... ربما كانتا في قضاء حاجة...

وذهب قائد الناقة لحراستهما من بعيدٍ كما كان يتصور... ملّ الجميع من الانتظار... أشرقت الشمس وارتفعت ولم يعد أيٌّ من الفتاتين، كما لم يظهر قائد ناقتهما أيضاً!

لم ينفع النداء، ولا الصراخ... ما من مجيب سوى الصدى! بلغ النهار الضحى والجميع قلقون يريدون سرعة التحرك للخروج من هذا المكان ومتابعة

السفر... أما بقية المرافقين في مؤخرة القافلة الذين أقلقهم هذا التأخير، فقد جاء بعضهم إلى منتصفها يستطلعون الأمر...

كادت أن تدب الفوضى بينهم، وكان لا بد من حل يرضي الجميع... لذلك اقترح جزاع عليهم... أن ترحل القافلة مع نسائهم، بينما يبقى هو وبقية رجال قبيلته هنا للانتظار والبحث عن شيماء ووصيفتها...

كان عدد الرجال لا بأس به يفوق العشرين رجلاً، ولذلك اقترح أن تتابع نِساؤهم الرحيل مع القافلة كي لايكنَّ عائقاً لتحركاتهم أثناء البحث أو يتعرضن لأذى...

على هذا سارت القافلة تتابع طريقها، وتركت خلفها جزاع وأقاربه من الرجال، بينما تابعت نساؤهم السير مع القافلة.

انقسم الرجال الباقون إلى نصفين... نصفهم ذهب للبحث بين متاهات اللجاة، والنصف الآخر بقي لحراسة الأحمال والجمال والدواب...

انتهى النهار وغربت الشمس، وطال بحثهم دون الحصول على نتيجة... وطال الانتظار أيضاً دون جدوى، خاصة بعد أن عاد الذين تولوا البحث... وبدت على الجميع أمارات الهم وأخذت الحرقة تأكل قلوبهم، بعد أن شعروا بأنهم مذنبون ومتّهمون بالتسيب، وأنهم لم يستطيعوا حفظ الأمانة التي

كان من واجبهم أن يرعوها، أخذوا يتساءلون فيما بينهم، ترى ما الذي سيقولونه لقبيلتهم؟ وبم سيبررون تلك المصيبة لها؟ وماذا سيقدمون من أعذار للعريس سميحان، هذا الذي سبقهم وذهب ينتظر عروسه في دياره بفارغ الصبر؟ إنه الآن على أحر من الجمر ينتظر بلهفة بالغة وصول عروسه مع القافلة، خلال أسابيع قليلة قادمة، وكان ما خطط له سميحان أن يقوم فور وصوله بجلب الخراف لوتجهيزها للذبح في يوم قدوم القافلة بالسلامة، وكذلك في يوم عرسه إضافة لدعوته لجميع القبائل المجاورة لمشاركتهم في حفل زفافه.

لا بد لنا أن نترك البحث قائماً في منطقة جزاع مع أبناء عمومته المنهمكين في البحث عن شيماء ووصيفتها، وعلينا أن نعود لنتابع مصيرالعريس الأول المختطف (فارس).

الفصل الرابع

البحث الآخر

والمصيبة في ديار الشيخ صابر، الذي لا علم له بما تعرضت له قافلة ابنته شيماء! لا يعلم أن مصيبته باتت مزدوجة... اختطف ابنه فارس وبعدها اختفت أخت فارس، أي ابنته شيماء.

صباح يوم التالي للزفاف أقيمت المآدب ووزعت المناسف (الصواني) بالعشرات على أرض خيمة الشيخ الواسعة وفي عدة خيام أخرى، وتقدم المدعوون الذين حضروا بالمئات لتناول الطعام، من الأقارب ومن القبائل المجاورة ... يأكلون.

و للتنويه... طريقة تناول الطعام لديهم الأكل بيمناهم فقط، حيث يضعون يسراهم خلف ظهورهم أو في حضنهم، وهي عادة من عادات البدو (وما زالت قائمة عند البعض)، على الضيف استعمال يد اليمنى فقط في تناول الطعام ويقال أنّ لها أصول فقهية أيضاً.

يكورون الطبيخ المؤلف من البرغل واللبن ـ ومنذ مدة أصبح الرز بديلاً للبرغل خاصة في دول الخليج ـ براحة اليد، ثم يقذفونها بالإبهام في أفواههم، ويقتطعون كتل اللحم من الذبائح الموضوعة بكاملها دون تقطيع

على كل منسف وحين يضطر الأمر لأحدهم لأن يقطع قطعة من اللحم صعب انتزاعها بيده اليمنى يطلب ممن يجاوره أن يثبتها له بيمناه ليأخذ حاجته منها.

الكل مشغول بالأكل وأبو فارس يبتلع حزنه ومأساته بصمت... يحاصر دموعه خلف سد رجولته وشهامته... وبصبر تمثل بصبر أيوب على بلواه لم يتفوه بكلمة، بل كان يرحب بالجميع ويدعوهم للإكثار من الأكل بحماسة منقطعة النظير...

انتهى الجميع من تناول الطعام... وجاء دور الحزم والتعبير عن الحزن... وقف أبو فارس والدموع تفيض من سدود عينيه وقال مخاطباً ضيوفه يخبرهم بمصيبته:

_ لقد فقدتُ فارس... لقد فقدتُ سندي يا قوم... عريس قِرَاكُم الذي أطعمتموه الآن فُقِدَ منذ الصباح هو والقطيع الذي أخرجه فارس ليورده الماء، ولا أثر لشيء منهم... ساعدوني يا بني عمومتي، ساعدوني يا أصدقائي وجيراني، ساعدوني يا بني قومي... ولدي... ولدي فارس أين أنت؟

تكاثر الضجيج والاستفهام وهرع الجميع للبحث عن فارس... وانطلق رجال قبيلة الشيخ صابر والد فارس للبحث معاً عنه وعن قطيعه، مصطحبين معهم جميع الكلاب التي ترافق قطعانهم... لعلّ أصوات نباحها تتجاوب مع أصوات نباح الكلاب التي ترافق قطيع فارس.

كان البحث مضنياً جداً، وما كان يزيد في عرقلته وصعوبته هبوب الرياح السريعة القادمة من الصحاري البعيدة المحملة بالرمال المزعجة التي كانت تضرب في كل ما تعرى من وجوههم، وفي الوقت نفسه لا تفسح المجال أمامهم لرؤية جيدة... تضرب الوجوه بقوة حتى تكاد أن تعمي عيونهم... كانت الطامة الكبرى إن العواصف قد أخفت أي أثر على الأرض يدل على فارس أو على قطيعه.

انتهى يومهم... وعاد الجميع بعد الغروب بعد أن قضوا بقية اليوم بالبحث الشاق، دون أن يحصلوا على أي دليل يفيد بما آل إليه مصير ولدهم فارس.

وهناك في الجهة الأخرى حيث تركنا فارس يسير مع خاطفيه مغلوباً على أمره، تتقاذفه الأفكار والهواجس... تتناوب تارة في مآل زوجته حسنا بعد اختفائه عنها، وتارة أخرى نحو أهله، وحال أمه وأبيه... تراه للحظة يغتصب ابتسامة باهتة حين تعود فتمر بمخيلته عروسه التي لم يهنأ بها أو تهنأ به سوى ليلة واحدة أعقبها ما حدث... للحظات تسيل الدموع من عينيه لتسقط على الأرض مباشرة، ها هو مسجى على بطنه على ظهر أحد أفراسهم أمام أحد الخاطفين كشكارة من الحبوب، يظنونه فاقد للوعي... لكنه واعٍ لما يدور حوله، لكن الخوف يدفعه للتظاهر بالموت أو فقدان الوعي.

يرافق خاطفيه مرغماً... لا يستطيع عمل أي شيء... فقط يتصنع الإغماء، لأنه يعلم سلفاً أن أي مقاومة منه مصيرها الفشل الذريع بل ربما قتله، لكنه في الوقت نفسه يحمد ربه على أنه استعاد وعيه بعد الضربة على نافوخه.

طالت مسيرتهم وامتدت حتى العصر... بعدها توقفوا للراحة، أنزلوه برفق عن الفرس، وتبين لهم أنه ما زال حياً... سكبوا على وجهه بعض الماء...

أطعموه كسرات من الخبز وسقوه قليلاً من الماء، وطلبوا منه بعد أن استعاد بعض نشاطه أن يرافق القطيع ويقوده...

خلال أيام السير معهم كان يفكر كثيراً لأن يجد طريقة آمنة للفرار! لكن عقله وما فكر فيه لم يهده إلى شيء، لقد ابتعد عن دياره كثيراً ولا يمكن له العودة دون دابة، وزوادة يقتات منها وإلى من يدله على الطريق.

لذلك سلم أمره لله وتابع معهم إلى حيث يسوقونه ويسوق قطيعه لهم مرغماً على ما فرضوا عليه... طالت رحلتهم وقُبيل غروب الشمس بقليل، جلسوا جميعهم للراحة وتداول الأمر فيما بينهم، وتركوا فارس يراقب القطيع... دار هذا الحوار بينهم:

قال كبيرهم:

_ أقبل الغروب وسنقضي الليلة في هذه المنطقة، ولكن القطيع يحتاج إلى أن يرد الماء، فما العمل؟

وهناك مكان ليس ببعيد أعرفه وفيه غدير للماء... ترد عليه قطعان المنطقة هذه.

فقال صنيعتهم ويدعى عواد:

_ نادِ على ذاك الغلام يأخذ القطيع إليه.

_ يا لك من ذكي أيها العبد... يذهب ويستنجد بهم علينا، ونتشتت في كل اتجاه، ولا داعم لنا، ويعود بقطيعه وبحراستهم.

_ الحق معك... وما العمل إذاً؟! وهل هناك من يجرؤ منا؟! ربما وسم أفراد هذا القطيع معروف لدى رعاة المنطقة.

_ دعنا ننتظر الغروب ويذهب اثنان منا يوردانه الغدير.

_ خيراً نفعل... لكن ناد عليه ليذبح أحد الخراف... نشويه ونتعشى به.

_ مسكين الغلام... قد ينحر نفسه ولا يذبح أحد شياهه!

_ هيا اذهب أنت وقم بتلك المهمة، وأنا سأوقد النار لنشويه... فقال كبيرهم وهو يبتسم:

_ لا تنسوا الغلام من حصة له للعشاء.

ذهب العبد وانتقى أحد الخراف والفتى فارس ينظر إليه والدموع تنهمر من عينيه، ولكنه لا يجرؤ على منعه، فقال له الرجل:

_ هيّا تعال لتناول العشاء... ألست جائعاً ؟!

_ ألا تخاف الله أيها السارق تذبح حلالي وتدعوني إليه؟!

_ اسمع يا فتى ما اسمك؟ أنا عبد مأمور، واسمي عواد، وعندما نصل القبيلة سأذكرك بالخير عند الشيخ حمود، لعله يسمح لك بالعودة إلى أهلك ولن أتخلى عنك.

اطمأن فارس لكلام الرجل، وكان هذا ممن ساقوا القطيع منذ البداية، وهي المرة الأولى التي يلتقي به مذ سلبوا قطيعه.

_ اسمي فارس... ووالدي سيبحث عنكم ويقتلكم جميعاً.

_ لا تأمل ذلك... كلا لن يصل إليهم أبداً... أمامنا مسيرة يومين ونصل ديار الشيخ حمود، وبعدها سيرحلون شرقاً، ثم جنوباً مسافة أسابيع ولن يصلهم أحد... لذلك اسمع نصيحتي، سايرهم ربما يقتلونك بسبب عنادك ... انتبه وتذكرما أقول لك.

_ ألست منهم أنت؟ كأنك تشفق عليّ لماذا؟!!

_ مثلك بدايتي، خطفت من أحضان أمي وأنا أصغر منك كثيراً، بل كنت بالكاد أمشي! اليوم لا أعرف لي أباً سوى الشيخ حمود ولا أماً سوى زوجته، وفي الوقت نفسه أعمل كأحد أفراد القبيلة، وعندي قطيع لا بأس به

أعتاش منه. أنا وأسرتي... لذلك أنصحك أن تتعايش معهم وتصبح منهم... وها أنا دمي ليس من دمهم، لا أغشهم ولا أخدعهم أو أكرههم.

_ ولا تعرف من هم أهلك؟ ولا أين قومك؟

_ كلا والحمد لله.

_ أفٍ... وتحمد الله على ذلك؟!!!

_ لا تعجب يا بني... وماذا يفيدني معرفة أهلي اليوم؟ وهل هناك وطن أبكي عليه؟ مثلي مثلك... كلنا قبائل رحّل لا مقر ولا قرار... تربيت في حماهم أكثر من ربع قرن واليوم أنا منهم ولا يعرف قصتي سواهم، لذلك أشفق على شبابك، وأنصحك ألّا تفكر بالهرب... لن تصل أهلك أبداً ولن يتركوك تعيش حتى تصلهم.

وكان عواد قد أنهى تقطيع الخروف... فدعاه ليذهب معه للعشاء معهم لكنه رفض.

سأله كبيرهم:

_ لماذا لم تأتِ بالغلام معك؟!

_ رفض أن يأتي ورفض أن يتذوق من لحم قطيعه.

_ دعه سيتعود فيما بعد، ولكن خذ هذا الرغيف من الخبز ضع بعض الإدام فيه وأعطه إياه... يجب أن يأكل حتى يستطيع مواصلة السفر معنا.

ساروا أياماً طويلة وشاقة... في كل مرة يسألونه عن عشيرته وأهله... كان يرفض أن يخبرهم بشيء، عندها تركوا أمره لشيخ عشيرتهم كي يبتَّ في أمره ويقرر مصيره.

أخيراً وصل الجميع... ومن بعيد شاهدوا مضاربهم، فأرسلوا أحد فرسانهم مسرعاً ليبشر بوصولهم.

وبدأت ساعتئذ الزغاريد والفرحة تعم القبيلة لعودتهم سالمين غانمين، عندها تركوا فارس واتجهوا إلى شيخ القبيلة يروون له أحداث غزوتهم المنتصرة وكسبهم وما غنموه في غزوتهم الموفقة هذه، والجميع بين مباركٍ لهم بغنائمهم ومهنئٍ بسلامة الوصول.

وكانت المفاجأة الكبرى لهم، حين طلب منهم شيخ القبيلة أن يجهزوا أنفسهم للرحيل خلال يومين أو ثلاثة، بحجة نقصان الكلأ في هذا المكان المسمى (نجد)، كما بدأت المياه تشح في الغدران، بعد أن دخل فصل الصيف المعروف بشدة حرارته وجفافه، خاصة في البادية... على هذا لا بد لهم من ترك المكان خلال أيام، وقام شيخ القبيلة يخطب بأهل قبيلته:

_ عاد أكثر شبابنا الذين أرسلناهم للبحث عن مراعٍ جديدة في جميع الاتجاهات... بعد أن عثروا لنا على مكان جيد تتوفر فيه مطالبنا من مراعٍ غنية بالأعشاب وواحات غزيرة الماء.

وشجعاننا الذين أرسلناهم للغزو أيضاً عادوا الآن ومعهم غنائم كثيرة، والآن حق لنا الرحيل إلى المراعي الجديدة، قبل أن يسبقنا إليها أحد... كنا ننتظر عودتهم وها هم قد عادوا سالمين غانمين... جهزوا أنفسكم للرحيل خلال ثلاثة أيام فقط... وقع نظر شيخ القبيلة على الفتى فارس واستغرب رؤيته وهي المرة الأولى التي يراه فيها...

فسأل رجاله:

_ من هذا الفتى الذي أراه بينكم؟ كأنني لم أره في القبيلة من قبل!

_ هو يا شيخ راعي القطيع الذي غنمناه من قبيلته.

أخذوا يروون له ما حدث في غزوتهم حتى عادوا... ناداه شيخ القبيلة وسأله عن اسمه وقبيلته، لكنه لم يفز منه بشيء جديد سوى أن اسمه فارس لكن الفتى قال:

_ رجالك غدروا بي ونهبوا قطيعي وضربوني حتى فقدت الوعي، ولا أعرف أين أنا... ولا ماذا يريدون بي وقد سلبوا مني القطيع؟

قال شيخ القبيلة:

_ نحن راحلون من هنا إلى مكان آخر أبعد ولا مجال لك في العودة أبداً... حتى لو تركناك ترحل لن تستطيع الوصول وحدك إلى أهلك ابداً، إن لم تثر لنا المتاعب ستعيش معنا بين أولادنا، ثم نظر إلى رجاله يسألهم عن الغاية من جلبه معهم... وهو يقول هذا الفتى لن ينسى أهله وسيمتلئ حقداً على القبيلة ومن فيها.

فرد صنيعتهم عواد:

_ أشفقت من أن يبقى مرمياً على الأرض مغمى عليه، وكنا بحاجة لمن يسوق القطيع ويهدئ كلابه.

عاد ونظر إليه الشيخ وقال له:

_ أنصحك بعدم التفكير بالهرب... أمامك مسيرة أسابيع في صحراء قاحلة وقد مررت بها.

تكثر فيها العواصف والزوابع... ومع هبّة الريح الشديدة الأولى ستطير وتضيع منك الاتجاهات، وقد يتغير اتجاهك دون أن تدري... الآن أنت ضيف عندنا وعليك ما علينا... كن أميناً علينا في عرضنا ومالنا، فتبقى

عندنا معززاً مكرماً، وعندما نعثر على أهلك نرسلك إليهم ... أما بغير هذا لا شك أنك تعلم عقوبة الخيانة... اذهب وساعد القوم في الاستعداد للرحيل.

نظر الشيخ جانباً وهو يسخر من وعده له بأن يرسله إلى أهله وتمتم:

_ لست من الغباء حتى أرسلك إلى أهلك لأفتح حرباً بيننا كي يثأروا لك.

سكت فارس المسكين وذهب مع أحد العبيد ليساعدهم وهو يبكي حظه ويفكر بما وصل اليه حاله الآن... فمن كان سيد نفسه بالأمس تحول إلى مسودٍ اليوم! ومن كان حر قومه أصبح عبد الغرباء، هاله الأمر ومع هذا في نهاية المطاف سلم أمره لله وهو مغلوب على إرادته، لا يستطيع سوى أن ينتظر الفرج، وعسى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً... بدأت القافلة تسير متخذة طريق لا معالم له سوى الشمس والقمر والنجوم دليلاً... تطوي قفاراً وصحاري لا نبات فيها ولا ظل يتلطى به مخلوق... علم فارس من العبيد بأن رحلتهم طويلة جداً قد تستغرق شهراً... أكثر أو أقل وذلك بحسب ما تسمح به رياح الصحراء الحارة وشمسها اللاهبة! كانت الوجهة المرجوة لهم هي اختراق صحراء النفوذ إلى الشمال في مناطق تكثر فيها العديد من

الواحات والينابيع والأشواك البرية وبعض النباتات السطحية كالسدر والإثل وغيرها.

قافلة الشيخ حمود كبيرة جداً وطويلة، وأحمالها كثيرة وثقيلة، وخلال مسيرتها كان فارس تتنازعه الأفكاره بين الحين والآخر... يسير معهم حائراً على قدميه وعقله يفكر فيما يفعل للخلاص من ورطته... الفرار منهم معناه الموت جوعاً وعطشاً أو بين فكيّ الوحوش التي تشتهر بها الصحراء... قرر أخيراً البقاء ومجاراتهم فيما يريدون وبقي يحادث نفسه بقرار اتخذه:

_ لا لن أهرب... عليّ البقاء معهم ولن يخذلني الله... سأتحمل القهر والتعب لعلّي أجد طريقة أعود بها بأغنامي. هذا ما كان فارس يحدث نفسه به وهو يسير مع القافلة.

كان كل يوم بالنسبة لفارس يمر كالذي سبقه... لا جديد في حياته سوى العواصف والرمال... في جوٍ تكاد الشمس فيه أن تختفي لكثرة الرمال المتطايرة مع الرياح وما تنثره أقدام حيوانات القافلة، وما تحمله الرياح معها من أماكن بعيدة... ذلك عدا عن حرارة الصحراء القاتلة.

لم يكن أحد من هذا الركب يستطيع فتح فمه أمام تلك المصاعب... حتى الحيوانات كانت تعاني من كثرة ما تحمله الرياح من رمال حارة... الكل يمشي محنياً رأسه إلى الأسفل، يتفاهمون بينهم بالإشارات من الأيدي فقط... لا أحد يكلم الآخر، نساء يسرنَ ورجال يسيرون ملثمين جميعاً ليحموا أفواههم من دخول الرمال فيها... ولشدة ثقل الأحمال كانت القافلة تسير ببطءٍ شديدٍ، تعيقها الرمال المتحركة تحت أقدام الإنسان فكيف بالحيوان؟!!

يفرض عليهم بطء السير أيضاً قطعان الماشية التي ترافقهم، من أغنام وماعز ومواليدها.

بعد مسيرة تجاوزت الأسبوعين تنفس الجميع الصعداء بعدها...

إلى أن خرجت القافلة من رمال الصحراء القاتلة، بعد معاناة طويلة وقاسية... الأهم من هذا كله إنهم خرجوا منها دون حادث يذكر، لم يتعد الأمر شاة نفقت أو ناقة سقطت من الإجهاد! المهم خرجوا منها إلى بادية حصباء كثيرة الحصى كثيرة التضاريس الثابتة ما بين هضاب ووديان عميقة... وليست كالتضاريس الكاذبة التي كانوا فيها يصنعها السراب لهم... أو تلك التضاريس التي تنتقل من مكانها بين ليلة وضحاها... تركوا اليوم

خلفهم منطقة الكثبان الصعبة التي كان السير يعجزهم فيها، وأمضوا على قطعها أكثرمن أسبوعين... خلال ذلك، كان الرعب والخوف يكاد أن يأخذ بصبرهم من عقولهم... كان الضياع يذلهم في المتاهات الواسعة عندما تتشابه التضاريس في بعض الاتجاهات... لا معالم ثابتة... الكل يتحرك هناك، هُم يسيرون إلى الأمام والطبيعة إلى جميع الاتجاهات... لا دليل لهم سوى نجوم السماء ليلاً وفي النهار دليلهم الشمس فقط... أحياناً قد يسيرون ليلة كاملة أو نهاراً أو أكثر... لا سماء تصفو ولا نجوم تُرى، ولا شمس تشرق عليهم خاصة عندما تكون العاصفة محملة بالأتربة القاتمة القادمة من السهول البعيدة، لتختلط مع رمال الصحراء... وإن أشفقت عليهم تبقى السماء ممتلئة بالعوالق منها.

المهم خرجوا من كل هذا بسلام، بينما الفتى المسكين فارس يسيرمعهم يقود قطعانهم، وينظر بحسرة إلى قطيعة الذي اختلط اليوم بين تلك القطعان... يحادث أغنامه التي نهبت منه... يبكي وسم أهله عليها الذي بُدّل أمام عينيه، ولم يتركوا ما يدل على أصحابه... تتنازعه الأفكار وتؤرقه وتقض مضجعه وتحرمه من النوم، هذا إذا عتبرنا بأن النوم في العراء هو المضجع المريح، لكن ما كان يهدئ من ثورته هو أن جميع من في تلك القافلة

خلال الرحلة مثله، لا أحد فيها مدلل... الكل يشقى ويعاني مثله مثل غيره...

خرج الآن من أفكاره عندما دخلت القافلة الأرض الجديدة، فشعر أنه يبتعد أكثر عن آماله بالنجاة، وهنا قطع المسكين الأمل... يشعر أنه قد توجب عليه العيش بقية حياته بلا مستقبل... عبداً يملكه أناس لا رحمة عندهم ولا شفقه... مملوكاً لغيره يعمل بطعامه وشرابه فقط... إن أخطأ فليس سوى العصا أو السوط يقوم بتصحيح الخطأ له... إن لم يكن قطع رأسه.

القافلة تسير... كلابها لا تنبح... جمالها لا ترغي... لا تسمع منها نهيقاً ولا ثغاء ولا رغاء! كأنها تعبر بصمتها عن سرورها بخروجها سالمة من تلك الصحراء ودخولها في مكان أكثر أمناً، وإن كانت الصعوبات كثيرة في هذه الأرض كثيرة الحصى التي تكثر فيها الوديان والنجود... إنهم في بادية الشام من جديد... في منطقة الجوف المعروفة... لم يغير الوضع الجديد في نفسية فارس أي شيء... يتساءل بينه وبين خالقه:

_ هل يقتل نفسه؟ هل يهرب لتأكله الذئاب ويرتاح؟... لم يشعر إلا وأحد العبيد يصيح به منبِّهاً للقطيع الذي يسوقه أخذ يتفرق في جميع

الاتجاهات... طفرت الدموع من عينيه رغماً عنه، بينما هو يركض لجمع القطيع، ويتعجب من هذا المكان... الأرض الجديدة أعشابها نامية ورائحتها زكية! يبدو أن أمطاراً سقطت عليها منذ عهد قريب.

وقفت قافلتهم، وأرسل شيخ القبيلة بعض شبابها يستطلعون المكان بحثاً عن غدير ماء ينزلون قربه ليرويهم ويروي مواشيهم... لم يطل البحث كثيراً، عاد الرجال وأخبروا الشيخ بأن الماء موجود على مسيرة نصف نهار بالنسبة لمسيرة القافلة وأنهم سيسرعون ويسبقونهم لبناء المنازل أي بيوت الشعر قبل وصولهم... اختاروا بعض الشباب ليذهبوا معهم... كان فارس من بين هؤلاء... خلال العمل أعجبوا بنشاطه وسرعة تلبية طلباتهم، ومن بينهم أحد الشباب مع أنه ليس من أقرباء الشيخ، لكنه عرفه الآن... إنه عواد الذي التقى به عندما أشفق على حاله حين سلب وضرب! سأله أثناء العمل:

_ ماذا أنت فاعل؟ ولكن شكله البعيد عن العبيد لوناً ولهجة... جعل فارس يثق به وهو يعرف قصته كاملة... لكنه لم يرَ وجهه عن قرب سوى اليوم...

رثى الشاب لحاله وقال له اصبر حتى تستقر أوضاعنا هنا لعلنا نتساعد، ونجد لك حلاً إن شاء الله.

الفصل الخامس

رمال ورمال

"ابتعدنا كثيراً عن قافلة عروس الهودج... وهنا لا بد لنا الآن من العودة إلى قافلتنا الثانية لنتابع أحداث رحلتهم التي تكاد تكون متشابهة... لكن الفرق بأبطالها".

أمضى جزاع وأقاربه نهارهم كله في البحث عن شيماء ووصيفتها دون جدوى... غربت الشمس... وحل الظلام الدامس في كل مكان، وحل معه يأس قاتل يعبث في قلبه وقلوب أقاربه... عندها جلس جزاع فوق كتلة عالية عبارة عن كتلة من الصخور المتشققة، وهي التي بالكاد ترى في الظلام... صخورتشققت بفعل الزمن، والطبيعة، وفوق قمة هذه الصخرة العالية يفكر بمصير شيماء وكيف اختفت!.

أخذ يبكي حظه وحظ أخيه والمصيبة التي حلت بهم دون أن يدري أو يكون له يد فيها... يبكي الشؤم الذي حل بهم جميعاً... تحسس الشقوق العميقة في الصخرة التي يجلس عليها، يحادث نفسه:

_ يا إلهي إن هذه الشقوق التي حدثت في قلبي أحس أنها أعمق من شقوق هذا البازلت الصلب... فرجك يارب، يفكر في المصيبة التي حلّت بهم دون

أن يعمل لها أي حساب ويتنهد حسرة على فقد الفتاة، وعلى التأخير الذي طرأ على القافلة وعلى رجال قبيلته في هذا المكان المرعب، ويأسف... كيف اضطر إلى إرسال النساء وحدهن... يفكر فيما سيقول لأخيه وما سيقدم له من أعذار، وبماذا سيبرر اختفاءها! وهو المكلف بحراستها وحمايتها... يناجي نفسه بصوت مسموع ويقول:

_ لو كانت قد سقطت هي وهودجها عن الناقة، أو سقطت منه لكان ذلك أخف وطأة عليَّ، أو أن حشرة ما لسعتها، أو لدغها ثعبان... لكان أهون عليَّ مما لا نعلم بما حدث، حينذاك سيعلم الجميع بأن ذلك ليس تقصيراً مني... ولكن أن تختفي وكأنها فص ملح وذاب! فهذا شيءٌ غير معقول ولا يصدقه أحد... أغمض عينيه، وسها عقله للحظة وكأن هاتفاً أيقظه! وهو يستعيد أحداث الرحلة منذ خرجت القافلة من منازل الشيخ صابر أهل شيماء، وحتى اللحظة التي افتقدها فيها، وكيف كانت ناقتها لا تزال راكعة كما أناخوها بالأمس، وكيف نهضت الجمال ولم تنهض ناقتها وكيف وجد هودجها فارغاً!

عاد جزاع يكلم نفسه، ويقول:

_ القافلة كانت تحوي عشرات الهوادج، ولكن هودج شيماء كان مميزاً فهو مزينٌ لعروس بالأشرطة الملونة، وعليه من الزخارف المختلفة... ما بين رايات صغيرة تتلاعب بها الرياح، وسلاسل، وأجراس، وغيرها من البهارج وجميعها بألوان صارخة.

فجأة انتفض سميحان... لقد تذكر إنه رأى في الصباح هودجاً آخر على ناقة مشابهاً في زخارفه، يقف جانباً، وذلك قبل دخولهم الممر الضيق بين صخور الحرّة، لكنه لم يبالِ به بل دخل هو بجواده قبل دخول ناقة شيماء، وهو حتى اللحظة يظن بأن الناقة التي تسير خلفه هي التي تحمل هودج شيماء، لكنها لم تلفت أنظاره ظن أنها إحدى مرافقي القافلة... فلا غرابة أن يكون مع أي قافلة جامعة كهذه أكثر من عروس على هودج... بل أحياناً تكون الهوادج بالعشرات... منها ما يحمل نساء موسرات، أو نسوة كبيرات في السن أو حتى بعض الرجال الأثرياء أو العجزة... لهذا لم يبالِ به وتوقع أن يكون الهودج لعروس أخرى ترافق هذه القافلة الطويلة، أو أنها انتحو بها قبل دخول الحرة ينتظرون حاجة لهم... لم يدفعه الفضول للعودة وقتذاك إلى الخلف ليتأكد من شيء... فلم يخطر في باله حينذاك لا ناقة شيماء ولا

غيرها، فهو مطمئن أنها تسير خلفه ويسير هو أمامها على جواده... بل ربما من المستحيل أن يخطر في باله أن يحدث هو ما يفكر به الآن...

لكنه الآن قال:

_ لا شيء مستحيل...

وهذا يعني أن الناقة استُبدلت بِحملها!! فكر بهذا الأمر... ومع أنه كان واثقاً بأن ناقتها كانت أمامه مدة طويلة قبل دخول الممر، لكنه لم يتذكر كيف أصبح يسير بعد دخوله الممر خلفها... كما إنه لم يعد بالإمكان رؤية ما وراءه بسبب انعطافات الممر الشديدة جداً، لذلك قلَّ اهتمامه فهو على ثقة بأن من يسير خلفه هودج عروسة سميحان... بدأ يستعيد ويتذكر ما كان في الصباح ويقّلب ما كان قد مر به خطوة، خطوة، فأخذ يدقق بفكره ما رأى ويتمتم:

_ الناقة التي كانت متوقفة على حافة الممر لم أنتبه إلى أنها تحمل وسم القبيلة نفسها في رقبتها، لكن ربما كان لونها أغمق قليلاً من ناقة عروسنا، ولكنني عندما لاحظت ذلك لم أُفاجأ... عزوت ذلك لظلال بعض السحب... وأيضاً تزيّن الهودج الزينات نفسها تقريباً... هنا عضّ على نواجذه وقال مرعوباً:

_ وهذا يعني أنه بعد دخولي الممر قبلهم تمت لعبة قذرة جداً دون أن أدري بها أو انتبه لها!

أي أنني عندما سبقت القافلة لأتفقد الممر الذي سندخل منه، أُدخلت ناقة بديلة... هي التي كانت متوقفة خارج الممر، وبالتالي أُخرجت ناقتنا... ثم قادوا ناقتنا عائدين إلى حيث أرادوا، وهنا لا أعتقد بأن هناك من سيسألهم لماذا...

قام من مكانه ونسي نفسه بعد هذا الاستنتاج الذي وصل إليه وأخذ يصيح بأعلى صوته بحيث أسمعَ جميع من حوله:

_ وجدتها... نعم وجدتها.

تراكض أقاربه باتجاه الصوت يتعثرون بالحجارة والصخور في الظلام صاعدين نحوه، ينتشرون حوله مستغربين قوله! يصيحون أين؟ وكيف؟ وقد وضع كلٌّ منهم كفه فوق عينيه يجول حوله بنظره في عتمة الليل ويهتفون وضوضاؤهم تملأ المكان... أين هي؟ أين هما؟ ماذا وجدت وكيف؟

"وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لنتابع بقية القافلة نفسها (الأساسية) أي القسم الأكبر منها ونتابع رحلتها وهي التي تحمل معها جميع نساء قبيلته سميحان اللاتي جئن ضمنها لخطبة شيماء... أي مع (جاهة) سميحان قبل اختفاء شيماء ووصيفتها".

عندما كانت القافلة تسير كانت النساء اللاتي يرافقن القافلة قبل حادثة اختفاء شيماء كانت دفوفهن لا تملّ ولا تكلّ أمام ركب العروس... أما الآن وهن يعدن كسيرات حزينات، كسرن دفوفهن، وتوقفن عن الغناء وتوقف طربهن! وأصبحت الثرثرة والبكاء والندب شيمتهنّ طيلة طريق عودتهن مع القافلة...

كان قائد القافلة من الذكاء بحيث وضع النساء في وسطها، حماية لهن من أن يتعرضن لأي مكروه، وتابع السير مخلفاً سميحان ورجاله يبحثون عما فقدوه.

أما المسكين سميحان الذي أراد أن يكسب الوقت وكان قد سبق القافلة، أخذ يجري جاهداً بكل ما استطاع من سرعة كي يحاول الوصول قبل

القافلة بوقت طويل... إلّا أن التعب والسهر أنهكاه، وهو يمتطي جواده دون راحة... ويصل الليل بالنهار في سيره... لا يتناول سوى لقيمات بسيطة فقط كلما أحس بالجوع، وفي النهاية أضناه التعب وأصبح جواده يسير خبباً...

مع غروب شمس ذات يوم توقف ليرتاح قليلاً ويريح جواده، لكن لشدة تعبه، غفا وخشية أن يبتعد جواده عنه، لف زمامه حول يده بعد أن أطاله مقلده بحبل طويل وتركه يرعى حوله.

فجأة... أحس بأن هناك من شد ذراعه وأوشك أن ينشلع من كتفه... قفز من مكانه بحركة لاشعورية محاولاً الوقوف على قدميه.... لكن المفاجأة المباغتة وطبيعة الأرض المملوءة بالحصى والحجارة الصغيرة أعاقت نهوضه، وسقط على الأرض؛ بدأ الجواد يجره بشكل شبه دائري تقريباً على الأرض حتى أوشك أن يهلك سحلاً! لكن أنظاره تعلقت برجلٍ يمتطي جواده، ويلكزه بقوة بمهمازيه المثبتتين بالركابين، وفي الوقت نفسه يضربه بقضيب من الخيزران بعنف... لم يعتد عليه الجواد، والجواد يرفض أن يستجيب له، بل إنه راح يتحرك ضمن بقعة محددة، ويحاول إسقاطه عنه... لم يكن لديه شك من أنها محاولة لسرقة جواده، وأن جواده يرفض الانصياع إلى أوامر اللص الذي مازال يلسعه بخيزرانته!

وكأن الجواد فهم الغرض من ركوب اللص عليه... فأخذ يصهل بقوة، ثم يقف على قدميه الخلفيتين ثم يهبط بأسرع ما ارتفع، وكأنه يريد أن يسقط راكبه... جُنَّ جنون سميحان لكنه استطاع في النهاية بعد جهد أن يسحب خنجره ويقطع الحبل الموصول بمقود الجواد بعد أن سقط اللص عنه... جرى نحو السارق الذي يتكوم تحت حوافر الجواد، ولم يستطع النهوض بسرعة ما جعل سميحان يرمي نفسه فوقه ويضع حد خنجره على عنقه، أخذ يحقق معه ويسأله:

_ من أنت؟ ولماذا تريد سرقة جوادي؟ بدأ يتناهى إلى أذني سميحان من إحدى الجهات صوت صهيل لجواد لكنه لا يرى... شك بأن الصوت يأتي من خلف هضبة صغيرة قريبة... فأردف متابعاً:

_ ومن الذي يقف خلف التلة؟

_ لا أحد...

_ لمن الجواد الذي نسمع صهيله؟

_ لي أنا...

_ طالما لديك جواد لماذا تحاول سرقة جوادي؟ وزاد الضغط بخنجره على عنقه، ما دفعه لأن يصرخ متوسلاً:

_ مدفوع أنا... أعتقني وأصارحك بما تريد.

نظر سميحان حوله فلم يجد سوى رسوماً ووهاداً في جميع الاتجاهات... لا منازل بداوة ولا قطعان ترعى، ولا شيء يتحرك... المكان موحش جداً، ويعرف بأن مراعيه أقفرت والمياه في واحاته جفت، ورحلت القبائل منه بانتظار عام جديد وربيع آخر، وإنه من غير الممكن أن يفرَّ اللص منه أو يجد من يستنجد به... عاد وتمعن بالرجل وقد رأى على ثيابه بعض مظاهر النعمة فقال له:

_ أي أمير قتلت ونهبت ثوبه؟

_ هي ثيابي... ولم أقتل أحداً...

_ إذاً ما غايتك؟

_ غايتي قتلك

_ وإذا فشلت بذلك؟

_ أضيع وقتك، وأتركك في البادية كي ترجع إلى ديارك ماشياً، وربما لا تصل أبداً...

_ وما أدراك أنني لن أصل إلى دياري؟

_ أتركك بلا زاد ولا ماء.

_ يبدو أنك تتكلم بالألغاز! أو أنك تكذب ولا تقول الحقيقة!

_ بل هي الحقيقة ولست بحاجة لمال...

الفصل السادس

لعبة القدر

ابتعدنا عن فارس كثيراً وآن لنا العودة إلى متابعة مصيره بعد أن تركناه يعمل عند خاطفيه بهمة تزيد عن طاقته، خاصة بعد أن وعده عواد بمساعدته في محنته، كي لايسيئوا الظن به وليشعرهم أنه رضخ لواقع الأمر... ها هو الآن كما يبدو أنه وجد باباً للأمل فتح له، فأصبح يعمل بجد ونشاط... وإن كانت أفكاره تزين له الحرية في كل لحظة، ويعيش لحظات جميلة فيها الكثير من الوهم الذي كتب له أن يعيشه فرحة عندما سيعود لأهله، وإلى حسنا زوجته بالذات... لقد بدأ يعيش في خيالات تدغدغ أحلامه فرضها عليه الموقف الحالي، يتذكر ما في الماضي القريب وكأنه يحياه اليوم يرسم صور استقباله أثناء عودته، من ترحيب قومه به وتقبيل يديّ أمه ورأس أبيه... فترتسم البسمة على شفاهه، ويشعر كأنه يقبل أخوته ويصافح قومه... يشعر أنه يحتضن زوجته ويتلمس شعرها... لكنه يستيقظ فزعاً من تلك الأحلام على صوت عواد، وهو يطلب منه بعض أدوات العمل... فيستفيق المسكين من أحلامه على واقعه المر القاسي الذي يعيشه هذه اللحظة.

ناوله ما طلب منه ثم نظر إليه وهو يقول بلهجة أقرب منها إلى الاستجداء:

_ هل صحيح يا عواد بأنك ستساعدني؟ علت دقات قلبه وأخذت شفتاه ترتجفان رعباً وهو يحدق في وجهه ويخشى أن يكون قد تنصل من وعده... فأجابه عواد:

_ أتريد أن أقسم لك برب الكعبة؟ أو بأولادي؟ إنني لن أتخلى عنك وسأكلم الشيخ حمود عنك... توكل على الله فقط... عندها سكت فارس وهزته قشعريرة فرح، لقد شعر أن عواد صادق فيما يقول، وأن الشيخ حمود، وعده إن وجد طريقة يعيده بها إلى أهله لن يتأخر... عصر ذلك اليوم أنهيا مهمتهما بدق أطناب الخيمة الكبيرة... خيمة شيخ القبيلة... كذلك أنهى الآخرون نصب بقية الخيام... لم يستفِق فارس من أحلامه طيلة طريق العودة... يحلم كيف سيصل إلى قومه؟ كيف سيروي لهم ما مر به... يحادث نفسه... هل يروي لهم بطولات قام بها بنفسه يختلقها؟ وهل سيصدقونه؟ أم يخبرهم بواقع حاله الذي عاشه؟ ما إن عادا إلى القبيله حتى قال:

_ عندها سيكون لكل حادث حديث...

اتفق الجميع على الرحيل اليوم إلى المكان الذي نصبت عليه الخيام، بعد أن تم اختيار المكان لإقامتهم، ونصب المخيم. لم يعد هناك من شيء يعيقهم

عن ذلك... فقط ينتظرون مواشيهم التي ستعود بعد قليل من المرعى، بينما ما زالت أحمالهم مشدودة على ظهور دوابهم والطقس لا بأس به، وهذه الليلة ستكون مقمرة، وبعد ساعات قليلة سيتابعون السير إلى حيث نصبت خيامهم.

جلس فارس مع الجالسين أمام مجلس الشيخ، ولم يكن بعيداً عن خيمته هذه المؤقتة التي نصبت له هنا على عجل وساهم هو في بنائه... بيت الشعر الكبير المؤقت الذي يخص الشيخ نفسه...

اليوم من أيام الصيف الحارة... رواقات الخيمة مرفوعة ويراها الجميع... ويجلس فارس قريباً جداً.

بدأ يسمع حديث عواد وهو يخبر الشيخ عما فعلوه اليوم... التقطت أذناه اسمه... تململ واقترب أكثر وهو ينبطح على الأرض متظاهراً بالنوم ليستمع إلى حديث عواد مع الشيخ:

_ يا شيخنا روى لي هذا الفتى قصته ووعدته أن أساعده...

_ بماذا وعدته يا عواد؟

_ أساعده بالبحث عن أهله والعوده إلى دياره.

أجاب الشيخ بلهجة ملؤها السخرية:

_ لنفتح علينا جبهة قتال... ومن يضمن لي بأن جماعته لن يغزونا ويثأروا مِنّا عندما يخبرهم من نحن وأين ننزل... هذا الكلام غير وارد يا عواد... ثم أنت كنت ترافق المجموعة التي غزتهم... لماذا لم تتركوه مكانه بعد أن ضربتموه؟! وأنت تعلم... هل سبق أن جلبنا أحداً مع الأسلاب؟ ثم غمز له وأردف:

_ سواك أنت فقط... لكن أنت أتينا بك طفلاً صغيراً مع أمك، والسبب أن والدتك قتلت أحد رجالنا أثناء غزونا لقبيلتكم... لكن أمك ماتت في الطريق... صمت الشيخ وبعدها قال:

_ ثم أنت رضيت بجلب الفتى وكان بإمكانك تركه مكانه، ولكن أردتم أن تريحوا أنفسكم عن قيادة القطيع. المهم ماجرى أصبح واقعاً الآن وأنتم دائما ستحتاجون إليه لرعاية القطعان هنا...

_ أنا يا شيخ كنت أسوق القطيع ولا علم لي به إلّا حين التقيت بالفرسان ورأيت حامداً يحمله أمامه على الحصان... وكان مغمياً عليه، ولم أرَ وجهه إلّا في آخر النهار بعد أن قد ابتعدنا... ولكن يا شيخ ماذا سأفعل؟ لقد وعدته أن أساعده... سأله الشيخ:

_ وهل قلت له بأنك ستتركه يعود إلى أهله؟

_ كلا يا شيخ... لو أنني فكرت بما قلت لما وعدت...

_ على كافة الأحوال تصرف وخلص نفسك... عجل الآن بالذهاب بدأت القطعان تعود... اسقوها الماء واحلبوها... بعدها سنتابع السير إلى حيث نصبتم لنا بيوتنا ولكن من أجل الغلام، انزع الأمر من رأسك... فعندما نتركه ويصل سالماً إلى قومه، من يضمن لنا ما سيحدث... قد يثيرون عدة قبائل ضدنا... نحن لا نعلم من هم! كذلك انتبه... هذا المكان بالذات معروف جداً، وهو ممر للقبائل الراحلة أحياناً... لا تدعوه يرافق الرعاة ولا تتركوه يسرح بالمواشي حتى يخضع تماماً ويخف حماسه للبحث عن أهله ... دعوه يخدمكم داخل القبيلة مدة من الزمن، حاولوا ذلك ما استطعتم.

كل هذا الحديث كان يسمعه فارس... للحظة كاد أن يغمى عليه ولم يزد عن قوله:

_ سلمت أمري إليك يا الله... ثم نهض قبل أن يخرج عواد من خيمة الشيخ الذي أخذ يصيح بالناس أن ينتهوا بسرعة من عملهم ليتابعوا السير.

بحث عواد عن فارس حتى وجده وقال له:

_ سر إلى جانبي عندما نذهب من هنا...

أخذ عواد يحاول تهدئة فارس بعد أن أخبره بأنه سمع حديثه مع شيخ القبيلة، وتأكد لديه بأن عواد مهما حاول أن يعده بمساعدته فهو لن يستطع إغضاب شيخ القبيلة من أجل إرضائه، وهو يعلم بأن عواد جلب صغيراً إلى قبيلة الشيخ وتربى عندهم وتزوج منهم وأصبح ذا حظوة عند الشيخ، لذلك قرر ألّا يحرجه أكثر من ذلك... رحلت القبيلة بعيد الغروب بقليل، وغايتهم بذلك أن يصلوا فجر اليوم، أو بعد بزوغ الشمس إلى حيث نصبت خيامهم...

لم يتسنَّ للاثنين التلاقي طيلة الطريق، أي عواد وفارس... القافلة تسير متثاقلة في الأمام بأحمالها والقطعان تساق خلفها... وتمشي الرعاة من حولها وخلفها.

وقبل ظهيرة اليوم التالي وصلوا إلى مضاربهم الجديدة وحطوا من رحالهم... عواد لم يقدم إلى فارس سوى الوعود، وفارس يعلم استحالة الوفاء... والأسباب كان قد سمعها من مبررات الشيخ ... وكما في السابق اتخذ الصبر من حيث أعجزه عمل أي شيء... تمر أيام وتطول، ولا تغير في الحال.

" أن لنا هنا أن نفصل القصتين، ونتابع قصة سميحان وشيماء حتى ننهي أحداثها الرئيسية... ونترك قصة "فارس وحسنا" حتى ننهي تلك... لأن الأزمان ستتباعد كثيراً بعدها بين الاثنتين، ونعود لإنهاء الأخيرة أي "سميحان وشيماء"."

الفصل السابع

حبٌّ وحرب

لنتابع أولاً النسوة اللاتي تابعن سيرهن مع القافلة وحدهن دون رجالهن بعد اختفاء شيماء ووصيفتها وما تلا ذلك من أحداث...

تابعت القافلة رحلتها التي حوت جميع نساء قبيلة سميحان ومن جئن في ركبها.

فبعد اكتشاف المصيبة بفقد العروس كسرن الدفوف، وتوقف طربهن وتوقفت أناملهن وكفوفهن اللاتي لم تكنّ أو تملّ أناملهن من النقر عليها... بعد أن تبدل حالهن، وبتن يتخذن من الثرثرة والبكاء والندب وسيلة للتعبير عن حزنهن.

وكما علمنا، أن قائد القافلة وضعهن في وسط ليضمن لهن الأمان، وحماية لهن عن أي مكروه يتعرضن له.

على هذا استمرت القافلة في سيرها بالترتيب نفسه، وبقي الحزن يرافق نساء قبيلة سميحان طيلة الطريق

أما سميحان... الذي تركناه يضع خنجره على عنق الشاب بعد محاولته سرقة الجواد، وأخذ يهدده بالذبح إن لم يعترف له بما يحمل من أسرار، وتركناه يضغط على عنق اللص ويطلب منه البوح بالسر تحت التهديد بنحره! ثم اعترف بأنه مدفوع إلى فعلته، عاد فسأله:

_ من الذي دفعك إلى ما فعلت؟ وإلى من تنتسب؟!

_ حبي لشيماء... أنا أنتسب إلى قبيلتها، ومن أقاربها.

_ شيء عجيب فعلاً... لماذا لم تصرح بحبك هذا لها؟ ولم تتقدم لخطبتها من الشيخ؟ وأنت تقول أنّك من أبناء عمومتها، وأنت تعلم بأن المتعارف عليه في جميع قبائل البدو، بل العرب كافة، بأن من حق ابن العم أن ينزل ابنة عمه عن الفرس بأي طريقة حتى ولو بالخطف إذا كان يريدها حليلة له، وإن كانت تزف إلى عريس من القبيلة نفسها،

_ وهذا ما أفعله الآن.

_ وهل تواعدتما على الزواج؟!

تبسم سالم قسراً وهو يقول:

_ لا أخفيك بأنها زوجتي...

_ ماذا؟؟!!! كيف؟

_ سراً... بعد رفض والدها لي... وهنالك أمر آخر لم أكن أريد البوح به...

_ ما هو؟! تكلم هيا...

_ إنها حامل...

صرخ سميحان مرعوباً:

_ ماذا تقول؟! أنت تكذب أيها القذر... منذ متى؟

_ منذ ثلاثة أشهر...

زاد الضغط بحد الخنجر على رقبته حتى كاد أن يخترقها وقال:

_ وجب الآن قطع رقبتك أيها القذر...

_ لا... لا بالله عليك... أنا أكذب عليك... فأنا لم ألتقِ بها سوى منذ شهر واحد... لكننا تواعدنا على الزواج... وقد قلت لك هذا لعلك تتخلى عنها وتتركها لي.

_ يا إلهي كم أنت غبي! لو قلت هذا الكلام هناك لتركتها لك.

_ سيرفض الشيخ صابر لأنه رفضني من قبل! عندها ستفشل زيجة فارس من أختك...

_ اسمع... ما حصل منك اليوم سأتغاضى عنه، وسأطلق سراحك... وبالمقابل سأبحث لك عن أجمل عروس في قبيلتي... والأمر قسمة ونصيب ولن يغير الله أمراً كتبه لنا.

رفع خنجره عن عنق الشاب وأطلقه وقال له:

_ أنتظرك في قبيلتي بعد شهر من الآن...

لم يتم كلامه حتى قفز الشاب مهرولاً نحو التلة التي يخفي حصانه خلفها... تفاجأ سميحان بهرب الشاب، قبل أن يأخذ منه وعداً بما اقترحه عليه وما لديه أكثر من المعلومات... خاصة وأنه ما زال يفكر بكلمة سالم عندما أجابه على كلمة الخطف بـ (وهذا ما أفعله الآن). لكنه ظن بأنه بدأ بهذا العمل اليوم فقط من محاولته سرقة الجواد قبل قليل... مع هذا لم يطارده... فقد وعده بالعفو ولن يتراجع.

تابع سميحان السير إلى حيث تنزل قبيلته لينتظر عروسه بفارغ الصبر، ولم يعط أهمية لما تعرض له في الطريق، مطمئناً إلى أن عروسه بحماية أخيه وأبناء عمومته، ومعهم رجال أشداء يرافقون القافلة لحراستها.

ما إن وصل إلى المنازل حتى كان يخرج كل يوم إلى تلّةٍ قريبة يراقب بأنظاره وصول القافلة، وهو يعلم جيداً إن القافلة ما زال أمامها بضعة أيام حتى تصل... كان يشعر أن تلك القافلة تحمل مستقبل حياته كاملة، وأن ما عاناه خلال سفره من مشاق كثيرة لأجلها تستحق ذلك... لم تعد تشغل باله الحادثة التي حصلت معه في الطريق، بقي مطمئناً، خاصة وأن شيماء في عهدة أعمامه وأقاربه والكثير من نساء قبيلته ومن بينهم أخواته.

كان يعلم أن طريق القوافل يمر حصراً قرب التلة التي يراقب منها وصول القافلة... فمن جانبها يمر حلمه... لذلك لم يكن يفارقها حتى يعود إليها بعد ساعة... وكان كلما لمح من البعيد ركباً يظنه قافلتهم فيفزع نحوه... مع العلم أنه كان يشك بأنها قد تكون قافلتهم، فتلك مميزة بطولها وكثرة الهوادج والتي لا تخفى عليه... أخيراً، وبعد انتظار طال أياماً بدت له القافلة نفسها من بعيد تقترب، فعاد راكضاً يبشر قبيلته بوصولها... وطلب من جميع الرجال ممن وجدهم في المنازل الحضور ببنادقهم وسيوفهم، وأن يصطحبوا معهم الكثير من النساء يحملن معهن الدفوف وأدوات الطرب.

اتجه الجميع لاستقبال القافلة... بدأت القافلة تمر تباعاً حتى وصل أوسطها أمامه... ولم يجد الهودج ولا ما تركبه النساء من خيولٍ وجِمالٍ. فالنساء في العادة تكون في حماية تامة من الخلف ومن الأمام ومن جميع الجهات... شغل هذا الأمر باله كثيراً فأوقف إطلاق النار للمبتهيجين وأوقف ضرب الدفوف والغناء!

أصيب سميحان بالذهول الشديد... خاصة عندما لم يجد سوى نساء قبيلته في وسط القافلة ولم يجد أحداً معهن من رجال قبيلته...

كان يتوقع أن ينعزل جميع أقاربه مباشرة عن القافلة، ليحتفلوا بوصولهم سالمين ينشدون الأهازيج والغناء... والرجال يطلقون الرصاص... ولكن شيئاً من هذا لم يحدث... أخيراً وبعد انتظار طال لاح لنظره بعض الهوادج فهدأ فكره قليلاً... لكنه لم ير هودج عروسه المميز بينها... أكد بأن مصيبة ما قد حلت بقومه وعروسه.

كان قائد القافلة شديد الذكاء، ففي آخر استراحة للقافلة، وقبيل وصولهم لمنازل الشيخ سميحان... قام بعزل جميع النساء جانباً وترك القافلة تتابع سيرها حتى أوشك مرورها على النهاية، عندها أدخل النساء في نهاية القافلة... وترك خلفهن بعض الرجال لحراستهن ومساعدتهن، والسبب هو أنه في حال وضعهن في المقدمة فستكون النساء في طلائع الواصلين، وعند رؤية أقاربهن لهن سيتفاجؤون بنواحهن وعويلهن... بينما تكون القبيلة منتظرة لأن تسمع الزغاريد والطبل والزمر من جموع القادمين... وكالعادة طبعاً كان المتوقع أن يرد عليهم المستقبلون من الرجال والنساء بالطريقة نفسها... كان الانتظار طويلاً والتفكير والقلق أكثر... وطبعاً كانت تلك طريقة ذكية تهدف إلى التخفيف من وقع المفاجأة على المستقبلين... مرت

نهاية القافلة من أمام سميحان، وخرجت النساء من القافلة كلٌّ منهن تندب وتبكي مصيبتهن ومثلها من تتذكر عزيزاً لها فقدته!

طال النحيب والعويل، ولم يفهم سميحان ما الذي حدث لعروسه، ولا لرجال قبيلته عندما لم يجد أحداً من الرجال مع القافلة... هبط قلبه وأصبح كلامه نواحاً أقرب لنواح نساء قبيلته، وفي النهاية نادى أحد رجال القافلة وسأله ما الأمر... فأجابه:

_ لا علم لي بما حدث... ستجد العلم اليقين عند قائد القافلة في المقدمة.

لكز جواده يسابق الريح حتى وصله، وحاذى قائد القافلة على جواده... استفهم منه عما وقع لرجال قبيلته وما المصيبة التي وقعت لهم... فأخبره الرجل بما يعرف من اختفاء شيماء وبمكان بقاء أقاربه للبحث عنها، وحين سأله أين ترك أقاربه القافلة.. أخبره بالمكان وإن ذلك حصل في اليوم نفسه الذي غادر فيه هو سميحان ورفيقه القافلة كي يسبقهم ويجهز متطلبات الفرح.

وعلى الفور استدار بحصانه ولكزه دون روية للبحث عن مصيرهم فتاته ورجاله... سافر سميحان مشغولاً بما حلّ بقومه، وتذكر الرجل الذي كان

يحاول أن يقطع عليه طريق عودته... سافر كالمجنون لا زاد معه يأكله ولا ماء يشربه، انطلق دون تفكير أو روية مما سيتعرض له من أهوال وأخطار في الطريق.

الفصل الثامن

بارقة أمل

تركنا سميحان ممتطياً جواده يعدو نحو هدفه، وليس لديه بارقة أمل تمكنه من الوصول إلى هدفه المجهول، وقد تهور لشدة انفعاله عندما شد زمام جواده نحو مكان رجاله... بعد أن دفعه الحماس إلى مغامرته... فكر كثيراً مستغرباً ما حدث... وأخذ يلكز جواده بعنف، يطير به يريد المكان الذي ترك القافلة فيه، بعد أن علم من قائد القافلة ومن النساء اللواتي وصلن معها، بأن رجال قبيلته توقفوا في بداية المنطقة الصخرية، وإن عدداً منهم ومن بينهم أخوه، في الطريق نفسه الذي قدمت منه القافلة، للبحث عن المفقودتين اللتين كما علمنا اختفتا في ظروف غامضة، ولم يذكر أحد بأنه شاهدهما تترجلان، أو تصعدان إلى هودجهما في مساء اليوم المشؤوم، حين حطت القافلة رحالها في المكان الصخري.

همز سميحان حصانه بعنف وانطلق بأقصى سرعته... فكان كلما تباطأ الجواد لكزه بقدميه معاً، يحثه على الإسراع وبعد مسيرة تقارب الساعتين... بدأ الجواد يتباطأ كثيراً، وفي النهاية لم يعد ينفع تحريضه أو حثه على الجري... لا بالسَوط ولا باللكز، لقد أُرهق الجواد وأصبحت خطواته تتقارب... وأصبح سيره خبباً.

تحرك عقل سميحان واستفاق من حماسته وتهوره... وقف يفكر وهو ينظر إلى جواده، الذي أصبح عرقه يتقاطر إلى الأرض، والسبب المجهود الكبير الذي بذله بجريه السريع بصاحبه... فطن سميحان إلى نفسه وقال:

_ ويحِي ماذا فعلت بنفسي وبجوادي؟ وكيف لي أن أصل إلى غايتي؟ لا زاد معي، ولا ماء، ولا علف للجواد... يا الله... ماذا فعلت؟ وأي تهورٍ أقدمت عليه؟! نعم لقد تسرعت... التفت إلى الخلف فوجد نفسه قد ابتعد كثيراً جداً عن منازله، واختفت عن ناظريه مضارب القبيلة، ولم يعد يشاهد منها شيئاً.

قطع سميحان بحصانه مسافة طويلة، وأصبح الآن يحتاج إلى وقت أطول ليعود إلى حيث كان... ومع هذا استدار عائداً في الطريق نفسه الذي جاء منه بعد أن هدَّه الجوع والعطش وهدّ معه الجواد المسكين.

من البعيد تراءت له نقطة سوداء تتحرك... في البداية لم يميزها جيداً وشك أن وجهة سيرها نحوه ولم يميز اتجاهها جيداً... بعد قليل بدأت تتضح له رويداً رويداً... فقال والسرور يغلبه:

ذاك جملٌ... بل هو جوادٌ يرافقه جمل... بل عدة دواب... وقف ينتظر وقد أشرف على الهلاك لشدة عطشه. وكذلك جواده الذي أصبح بمشيته لا

يتعدى حصاناً يرعى العشب، لذلك قرر التوقف والانتظار مكانه... ربما يتلقى مساعدة من أولئك القادمين.

لم يمضِ وقت طويل حتى اتضح له مَن يكون القادم... وإذا هو ابن عم له يقود جواداً ويركب دابةً، ويسوق أمامه ناقة.

عرفه إنه شهوان ... سلّما على بعضهما، وسأله شهوان معاتباً:

_ كيف تخاطر بنفسك؟ وأنت تعرف مخاطر هذا الطريق دون رفيق... وحدك، ودون ماء، ودون علف للجواد ودون طعام لك.

سأله سميحان:

_ ما الذي أتى بك؟ وماذا جئت تفعل؟ يالها من مصادفة! لقد أنقذتني من ورطتي! أجاب شهوان:

_ لقد رأيتك تنطلق على جوادك بعد أن أُخبرنا بما حدث لعروسك، وتوقف شباب قبيلتنا في الحرّة للبحث عنها، ولحسن الحظ رأيتك تنطلق، غاضباً على صهوة جوادك، خاصة وأنا من رافقك أكثر من مرة على هذا الطريق، فقررت أن ألحق بك، وجلبت معي مؤونة تكفينا لأكثرمن أسبوعين لنا وللجواد... جلبت معي كل شيء يحتاجه الطريق على ظهر هذه الناقة... وكذلك جوادي وبغلتي لإراحة جوادينا، كما عزمت على الذهاب معك

لأساعدك في البحث أيضاً... فكل من بقي هناك من رجال القبيلة هم من أقاربنا، وأنت ابن عمي وسندي.. قَبّلهُ سميحان شاكراً وقال:

_ على هذا سنتابع سيرنا معاً، ولكن سنستريح هنا قليلاً لنتناول طعامنا... سأركب البغلة وأريح جوادي مدة من الزمن، فكما ترى إنه منهكٌ جداً.

هكذا تابعا مع غروب شمس ذلك اليوم في طريقٍ يعرفانه جيداً... كانا قد قطعاه أكثر من مرة وآخرها مع الجاهة التي ذهبت لخطبة شيماء، وأيضاً عندما عادا معاً وساقا مهر شيماء، وكذلك عندما ترك سميحان القافلة ليسبقها إلى المنازل للوصول قبل القافلة، لتجهيز ما يحتاجه حفل زفافه. لذلك لم يخافا من مغبة السير فيه.

لنتركهما يسيران في البادية يحاولان العودة إلى حيث توقفت القافلة، ونعود إلى جزاع الذي تركناه قبل أكثر من أسبوعين يجلس على قمة صخرة عالية ثم يصيح وجدتها. وعلمنا حينها أن أقاربه تجمعوا حوله مستغربين صراخه، يلتفون حوله... يتساءلون عما وجده في تلك الليلة المظلمة! أخذوا يستمعون لتلك الرواية العجيبة والاستنتاج الذي خرج به! إلى أن قال جزاع بصوتٍ جهوري:

_ أرى أننا تعرضنا لخدعة بارعة، وأن الأمر فيه حيلة كبيرة... لقد تم اختطاف عروسنا شيماء بحيلة ذكية، ولا أعلم إن كان حدث هذا الأمر بعلم شيماء أم كان ذلك رغماً عنها! لقد وضعوا ناقة في أول الدرب قبل الدخول إلى المنطقة الصخرية، بعد أن جُهِّزت الناقة مسبقاً لوناً وزينة كتجهيز ناقة شيماء تماماً، وحين وصلت ناقتها قرب الناقة المزيفة. تم الاستبدال بأن أخرجت ناقة شيماء بسرعة شديدة؛ وأُدخِلت المزيفة مكانها دون أن يلحظ العملية أحد أو يهتم بها، وحيث كنت قد دخلت الممر قبل دخول شيماء... جرى إخراج الناقة الحقيقية من القافلة وإدخال المزيفة الفارغة مكانها دون انتباه أحد... طبعاً لم ألحظ هذا الاستبدال الذي تم لأنه لا يخطر على بال إنسان... عندها رافقتنا الناقة المزيفة دون أن ندري، وهي تحمل على ظهرها هودجاً فارغاً. أما الناقة الحقيقية... فلا يعلم سوى الله الآن أين ذهبوا بها، وأين هي، ولحسن حظنا توقفنا هنا ولم نبتعد أكثر من ذلك... عندما نهضنا في الصباح نريد الرحيل بقيت ناقتهم راكعة... لكن الغريب من هو الذي أناخ الناقة المزيفة وهي فارغة؟ رد ابن عم آخر له كان معهم تلك اللحظة:

_ أنا الذي أنختها وعقلتها عندما وجدتك تأخرت، وكنت تتحدث مع قائد القافلة... رأيت الناقة وهي ما زالت واقفة دون غيرها... طبعاً لم أعلم أن الهودج كان فارغاً... الآن على ماذا عزمت؟ فقال جزاع:

_ الأمر صعب جداً... إما معرفة الى أين رجعت، أو إلى أين ذهبت الناقة فهذا سهلٌ جداً، وسنعرفه في الصباح... إن كانت الناقة قد عادت في الطريق نفسها فسنرى آثار خفوفها معاكسة لكافة النياق التي مع القافلة... ونعلم إلى أي مكان ذهبت؟ حتى ولو غيروا اتجاهها... من السهل تعقب آثارها ومعرفة ذلك ولكن ما يزعجني أكثر الآن... لماذا؟ وما السبب؟! والأهم هي المصيبة الكبرى، حين تصل القافلة إلى منازلنا، ولا تحوي سوى النساء فقط! والعروس ليست معهم ... ماذا سيفعل سميحان وكم سيتأثر؟ أمضى جزاع وربعه ليلة قاسية من القلق بانتظار بزوغ الفجر، يدعون ربهم ألا تهب عاصفة تمحو آثار الطريق.

أخذ جزاع يفكر بمن يكون وراء المؤامرة... وما دُور العروس في تلك الحيلة! وهل هي تعشق شاباً آخر؟ ومن قام بتلك اللعبة؟ وهل اتفقت معه على تلك المؤامرة؟ أم هي عملية خطف مدبرة؟! وهل تم ذلك بالتواطؤ مع أحد منهم؟ ثم يردد بينه وبين نفسه بين الفينة والأخرى:

_ هل كان أحدٌ عاشقاً لها واختطفها بعلمها؟! أم هي لا تدري عما حدث؟ لكن الناقة التي رأيتها كانت تحمل الوسم لقبيلة شيماء نفسه... كان ذلك واضحاً جداً على رقبة الناقة، لذلك لم أشك أنها ربما تكون مزيفة.

أخيراً بزغ الفجر، ونادى جزاع على من غلبه النوم... كي يستيقظ... انتقى خمسة من رجال القبيلة الأشداء، فاصطحبهم معه وبدؤوا البحث... قادوا خيولهم ورؤوسهم تكاد تطال الأرض وهم يتعقبون الأثر... وبعين البدوي الخبير المتمرس في البحث تابعوا آثار الناقة المستبدلة... طبعاً آثارالناقة ستختلف عن بقية الآثار حتى لو تصادف مرور غيرها في الاتجاه نفسه... فمن السهل تمييزه بسبب حمل ناقتهم الثقيل جداً، بهودجه وما فيه من جهاز للعروس والعروس ووصيفتها... لذلك لن ينخدعوا بغيره.

بدأ البحث وتتبع الأثر على الرمال... خدمهم هدوء الجو وقلة تماسك حبيبات الرمل، وعدم هبوب عاصفة شديدة في الليلة الماضية تمحو الأثر.

بعد ساعات طويلة من تقصي الأثر، الذي كان واضحاً لهم بسبب اتجاه سير الناقة المعاكس لسير القافلة ما سهَّل عليهم مهمتهم، وبعد ساعات من العمل المتواصل، وجدوا أن هذا العمل بهذه الطريقة، سيطول كثيراً، وقد يستغرق أياماً وخلالها ربما تختفي الآثار... لذلك اقترح أحدهم أن يركبوا

خيولهم وينطلقوا للبحث في المناطق البعيدة على الطريق نفسه. لأن هذا الطريق تعبره القوافل يومياً وهو الوحيد في ذلك الاتجاه.

حتى الآن لا شيء يعطل بحثهم، لم تمر بعد قافلتهم بالأمس قوافل أخرى، ولم يشاهدوا مسافرين منفردين يسيرون عليه.

بالفعل في النهاية قادتهم الآثار إلى منتصف الطريق، ثم تحولت إلى جهة جانبية، باتجاه آخر غير الاتجاه الذي جاؤوا منه، والمؤدي نحو قبيلة الشيخ صابر والد شيماء.

تابعوا تقصي الآثار... لكنهم فوجئوا بأنها أوصلتهم إلى جهة معاكسة... تابعوا السير معها حتى أودت بهم بعد قليل، إلى مكان قريب من منازل قوم غيرمعروفين لهم إطلاقاً، خاصة وأنهم ليسوا من سكان تلك المنطقة... ولايعرفون القبائل التي تقطنها.

خافوا الاقتراب من تلك المنازل... وزاد خوفهم من كون عددهم قليل جداً، وربما يفتكون بهم طالما إن الأثر دل على أن الناقة المستبدلة دخلت ديارهم، بل ربما خطفت من قِبلهم وهم من فعلوا ذلك... طلب جزاع من رفاقه الابتعاد وانتظاره في مكان بعيد، على أن يتركوه يتصرف وحده.

نظر جزاع إلى المراعي البعيدة، فرأى قطعان الغنم منتشرة في المراعي البعيدة... اتجه نحو المراعي... اقترب منها... تظاهر إنه أحد تجار المواشي الذين يتجولون عادة بين القبائل بين الحين والآخر... والحجة شراء الأغنام أو الإبل...

مرّ في طريقه على بعض النوق وهي ترعى... اقترب منها يتفحصها بنظره دون أن يتوقف عندها... لفت نظره أن جميع النوق التي مر بها موسومة على رقابها بخطين، وإن إحداها تختلف في شكل وسمها...
شك بأنها قد تكون تلك هي ناقة شيماء، خاصة وأنها تحمل اللون نفسه... كما يبدو أنها وسمت حديثاً (كويت بحديدة حامية جداً) وإن كان شكلها لا يخفى عليه فقد كان يرافقها منذ خرجوا من ديار الشيخ صابر.
تأكد له بأنّ ما يبحث عنه موجود هنا في هذه القبيلة... بعد لحظة برز شاب يافع صغير لم ينتبه له... سأله عما يبحث بين الجمال... رد عليه جزاع قائلاً:

_ أبحث عن قبيلة الشيخ صابر أبي فارس... كي يبعده عن الشك فيه... رد عليه الشاب مرحباً يدعوه إلى ضيافة قبيلته ومتسائلاً عما يفعله هنا... وما الذي جاء به أيضاً؟ فقال:

_ أنا تاجر مواشي وقد رأيت جِمالكم هنا وقطعان الأغنام سارحة... جئت أسأل إن كان لديكم منها للبيع، وأنا في طريقي إلى تلك المنازل التي أراها هناك، فرد عليه الشاب:

_ بعد قليل نذهب معاً إلى منازلنا ويأتي أخي ليستلم مكاني هنا... ثم نذهب ونستضيفك في ديارنا.

وجدها جزاع فرصة للثرثرة مع الفتى الصغير... جلسا معاً على الأرض وبدأ حديث وديّ بينهما، فقال جزاع:

_ تلك الناقة تختلف عن أباعركم، وأرى كأنها وسمت حديثاً:

_ وما أدراك بذلك؟! وكيف عرفت؟ نعم بالأمس وسمت.

_ من خلال خبرتي بتجارة المواشي أعرف ذلك... أما الدليل كما ترى الذباب يحوم كثيراً حول الكي... بينما الموسومة من قبل وشفي كيها لا يتكوم الذباب حول الوسم...

_ فعلاً أنت ذكي جداً...

_ هذه مهنتي ولكن هل اشتريتموها حديثاً؟

_ لا، ولكن أحد أفراد قبيلتنا كان يحب فتاة ويعشقها، لكن أهلها زوجوها لآخر! وعلى حسب قوله إنها كانت تريده، لذلك قام سالم باختطافها هي وناقتها وهي في هودجها... ثم وسم الناقة كي لا يعرفها أحد.

_ هل من المؤكد أنهما اتفقا على ذلك؟!

_ لا... بل كانت العروس لا تعلم بما خطط لها... لأنها فوجئت حين أناخوا ناقتها في منازلنا وأخبروها أنها قد وصلت، وكانت تعلم أن رحلتها طويلة جداً! وكانت المفاجأة الأكبر لها، حين رأت سالماً هو من يدعوها للنزول! أما بغير ذلك فلا أعلم، وكل ما عرفته أن صراخها ملأ القبيلة... وعندما علم رجال القبيلة بالقصة وبخوا سالماً على فعلته هذه، ثم قرروا أنهم في الغد سيعيدونها إلى أهلها رغماً عنه... كما أن إخوانه طردوه من منازلهم، وآخرون اعتدوا عليه بالضرب... لقد انزعجت القبيلة بأكملها من هذا التصرف! لأن هذا العمل لا يليق بعاداتنا، وسيثير العداوة بين القبيلتين.

_ ولكن تلك العادة متبعة بين جميع القبائل في حال رفض الأهل تزويج البنت.

_ صحيح، ولكن الفتاة تعتبر متزوجة... يقال بأن عريسها كتب كتابها عند أهلها، والبعض يقول أنه بنى بها أيضاً... على هذا قرروا أن تعاد على ناقتها وهودجها إلى ديار أهلها، لقد استضافها الشيخ عبد الله في (المْحَرم) سكن نسائه، وسيسوقون غداً قطيعاً من الأغنام معها الى أهلها كهدية... ثم يذهبون الى قبيلة عريسها للاعتذار منهم تعبيراًعن رفضهم وأسفهم لتلك الفعلة الشنيعة، لأنها على ذمة رجل آخر... إنهم يستعجلون ذلك قبل أن يصل العلم إلى أهلها وقبيلتهم، أويعلم أيضاً عريسها بالأمر، ويتحول الموضوع الى عداوة وحرب بين القبائل قد لا تنتهي، فقال جزاع متجاهلاً معرفته بالموضوع:

_ قصة غريبة والله... ولكن كيف تعرف عليها... رد الفتى عليه:

_ يقال إنه تعرف عليها عند غدير ماء ترد عليه القبائل القاطنة هنا في هذه المنطقة... لكن لا أعلم إن كانت قد وعدته بالزواج أم لا... فقال جزاع:

_ على هذا فإن قبيلتكم اليوم مشغولة بأمورٍ أهم من التجارة! وتظاهر بأنه ينهض ويهم بالرحيل... وهو يقول:

_ سأرحل الآن وأعود في وقت آخر... تمسك الشاب كثيراً بجزاع، ودعاه لأن يقبل دعوته في الذهاب إلى منازلهم حسب العادات العربية الأصيلة في الضيافة، ولكن بسبب إصرار جزاع، تركه يرحل بعد أن تعهد له بالعودة لزيارتهم بعد مدة تكون الأحوال قد هدأت.

ودع جزاع الغلام وعاد إلى جماعته، الذين ينتابهم القلق والخوف عليه... ربما خافوا أن يتعرض إلى مكروه غير متوقع... كانوا بانتظاره على أحر من الجمر... أخبرهم بما حدث وقرروا العودة للتشاور مع بقية رجال القبيلة، الذين تركوهم مع القافلة يحرسون حيواناتهم وأغراضهم.

بعد مشاورات طالت بينهم قرروا إرسال عدد منهم لإعلام سميحان والقبيلة بما حدث... وأن يقوم بعضهم بالعودة إلى قبيلة الشيخ صابر (أهل العروسة) للتشاور معهم، وتهدئة خواطرهم. ريثما يصل سميحان ومن سيأتي معه.

شد جزاع ركابه هو وربعه... ووجهتهم العودة إلى منازل أبي شيماء.

ركبهم الهمّ وأخذ منهم مأخذاً عظيماً... وأخذوا يتساءلون كيف سيكون وقع رؤية أبي شيماء لهم وهم يعودون بسرعة خلال أيام من رحلة يعلم الجميع بأنها قد تستغرق عدة أسابيع مع قافلة مختلطة كقافلتهم، خاصة

ولم يمض على خروج القافلة من دياره بضعة أيام... هنا ستكمن المشكلة الأكبر، برؤية جزاع يعود مع بعض رجال قبيلته بهذه السرعة... ثم كيف سيشرح الأمر لهم؟ من المعروف عن أبي شيماء صلابته وشدته وتسرعه أحياناً.

في النهاية قرروا الذهاب إليه مهما كلفهم الأمر... والتشاور مع رفاقه أثناء الطريق... بعدها سيكون لكل حادث حديث... جمع جزاع أكبر عدد من أفراد قبيلته وترك الباقي للحراسة، وبدؤوا بالسير في اتجاه طريق العودة من حيث خرجوا قبل أيام بعروسهم... وتوجه قسم منهم نحو الحرة على أن ينتظروهم في مكانهم... حتى يرسل لهم جزاع من يعلمهم باللحاق بالبقية المتجهة نحو قبيلة الشيخ صابر أبي فارس، وفي الطريق أخذ جزاع يروي لمرافقيه قصة الغلام راعي الإبل الذي قابله قبل ساعات في الصباح، ويحدثهم بما علمه وبما فعله سالم! وكيف قام بخطف الفتاة... وبما عولوا عليه لحل المشكلة من إعادة العروس إلى أهلها... وكيف كانت ردة فعل أقاربه... وكيف ضربوا سالم وطردوه من القبيلة... وعلى إثر ذلك غادر القبيلة إلى جهة غير معروفة.

رد أحدهم:

_ سبحان الله... لا يوجد ما يأتي من فراغ حيث كنت أسمع هذا المثل يتردد كثيراً...

(إذا أردت أن تعرف أسرارهم. اسأل صغارهم).

فجأة وقف شاب صغير يرافقهم في أسفارهم... وهو من قال بأنه أناخ ناقة شيماء، واسمه زيد، وصاح بهم:

_ علام تذهبون إلى أهلها لتخبروهم بما حدث! ويدخل الجميع في قيلٍ وقال... قد يتحول الأمر الى معركة تأكل رحاها الكثير من الجانبين... ومن المعروف إن أبا شيماء (والد فارس) رجل لن يرضى عما حدث... وبهذا نخلق عداوة فيها قتل وثأر وربما ننجر معها نحن أيضاً... العروسة هي عروستنا وغدت من حريمنا... أما هو فقد زوج ابنته وخرجت عن طاعته ومن بيته وحمايته... دعونا نذهب إلى قبيلة الخاطف مباشرة ونحلُّ مشكلتنا معهم بأنفسنا قبل أن ينكشف الأمر... أنت يا جزاع تعرف طريقهم هيا بنا... ما الذي سيفيدنا تجييش القبيلة وتحريضها... وما حدث سببه ضعف رقابتنا وسوء حمايتنا لابنتهم... قال جزاع:

_ أقسم بالله أنك تستحق قبلة على هذه الفكرة... كيف فاتتني ولم تخطر لي على بال؟! نعم سنذهب إلى حماهم مع بعض شبابنا... أما الآن سنتوقف عن

متابعة سيرنا في طريق العودة لننهي مهمتنا في ديار الخاطفين، وبعدها نتجه لملاقاة بقية شبابنا حيث هم ينتظرون في المنطقة الصخرية... أما الخاطف، فسنعثر عليه يوماً وسيكون لنا معه حساب عسير، وسنثأر منه...

عند ذلك توقف جزاع ثم قال:

_ أرجو أن تعودو إلى أماكنكم تستريحون فيها، وليذهب معنا الغلام... فإذا لا سمح الله وقعنا في مأزق فهو خفيف على ظهر الجواد... سينطلق ليخبركم بما يكون قد حصل معنا... هيا عودوا أنتم إلى أماكنكم، وأنا سأعود إلى حيث كنت عندهم في الصباح، ومعي الشبان الخمسة نفسهم... ندخل ديارهم كضيوف ونخبرهم بما نحن قادمون لأجله، وسيكون معنا الغلام زيد هذا ليراقب، فان وقع لنا أي مكروه ينطلق بجواده كي تهبوا لنجدتنا، أو إذا احتجنا لكم بشيء ما... على هذا تحرك الجميع كل فريق باتجاهه المرسوم له...

الوقت الآن تجاوز الظهيرة بقليل، وبينما هم يسيرون بخيولهم خبباً... وإذ بطلقة بندقية تجاوب صداها في هذا الفضاء الشاسع مرَّ أزيزها من أمام وجه جزاع وكادت أن تصيبه في رأسه وتقضي عليه، نظر الجميع إلى الجهة

التي أطلقت منها الرصاصة... لمحوا فارساً يخرج من الوادي على ظهر جواده نحو السفح ويبتعد.

الآن لا بد لنا من فصل القصتين على النحو الآتي:

[سميحان وشيماء] عن [فارس وحسنا] وإنهاء أحداث هذه أولاً... لقد أصبح كلاً من بطلي القصتين في ديار تبعد كثيراً عن ديار الآخر... فارس يتجه جنوب غرب نحو الأردن وشبه الجزيرة العربية، وأحداث سميحان وقومه تدور ما بين جنوب أرض حوران والشمال السوري... لذلك وجدت من الأفضل إنهاء قضية سميحان في البداية... لأن الأخرى أي قصة [فارس وحسنا] سيطول زمن أحداثها.

الفصل التاسع

طريق الهلاك

ومع جزاع وسميحان، وما جدَّ عندهم من أحداث أثناء البحث عن شيماء ووصيفتها بعد أن مضت أشهر على خروجها من ديار أهلها، قبيلة الشيخ صابر أبي فارس.

استغرب الجميع سبب إطلاق الرصاصة التي كادت أن تودي بحياة ابن عمهم جزاع، وما سبب العدائية غير المتوقعة التي تعرضوا لها.

وقف الجميع مذهولين لحظة قبل أن يستفيقوا على صوت جزاع يصيح ويقول ويشير نحو رجل يمتطي جواداً ويعدو مسرعاً:

_ الحقوا به... الحقوه قبل أن يختفي ويبتعد عنكم.

انبرى ثلاثة من الفرسان لمطاردته. وكل واحد منهم أخذ اتجاهاً مختلفاً، بحيث أصبحوا كالطوق حول منطقة فراره بحيث لا يفلت منهم.. أحدهم اتجه نحوه مباشرة، وآخر انحرف يميناً، والآخر يساراً، وعندما غاب الفرسان عن أعين رفاقهم. قال جزاع لمن بقي معه:

_ هيا بنا نحن نتابع سيرنا نحو قبيلة الشيخ عبد الله، وعندما يعودون لن يظلوا الطريق إلينا...

تابعوا سيرهم وتركوا الثلاثة يطاردون مطلق الرصاصة، وأثناء سيرهم شاهدوا الإبل التي كان جزاع قبل ساعات يتحدث مع راعيها... ما إن

لاحظهم الغلام نفسه الذي يرعى الإبل... حتى جرى نحوهم لاستقبالهم محيياً ومرحباً، لقد عرف الغلام جزاع على الفور من فرسه البيضاء... سلم عليهم مرحباً، وقال:

_ سأذهب معكم لأخبر الشيخ عبد الله بقدومكم... إنما كأني منذ قليل سمعت صوت طلقة! أظن أنها لم تحقق هدفها! فقال جزاع ملاطفاً ومستغرباً:

_ وما هذا الذكاء الخارق لديك؟ كيف عرفت ذلك؟!

_ لم يكن أزيزها بعيداً عني حين مرَّ صوتها من فوقي... لو أنها أصابت أحداً ما... أو اصطدمت بمانع ما لكان انقطع أزيزها بسبب اصطدامها بهدفها. ردَّ جزاع قائلاً:

_ الحق معك... وأرى أن أحداً هنا لا يريدنا أن نصل اليكم! رد الغلام:

_ من المؤكد أنه سالم، لا سلّمه الله... لكن هل بينكم خلاف معه؟! فرد عليه أحد الفرسان:

_ لنا حديث آخر ستعرفه فيما بعد... اقتربوا من منازل الشيح عبد الله التي لا تبعد كثيراً عن مراعيهم فتابعوا السير مع الفتى نحوها... وما أن أطلّوا

عليها حتى سبقهم الفتى راكضاً ينادي: ضيوف... ضيوف يا شيخ عبد الله... هؤلاء ضيوف قادمون إلينا.

خرج الشيخ عبد الله مرحباً، واستقبلهم أحسن استقبال ورحب بهم... وقبل أن يدخلوا الخيمة شاهدوا فرسانهم الذين ذهبوا لمطاردة الفارس الهارب الذي أطلق النار عليهم؛ يقودون حصاناً مسرجاً وخالياً! استغرب الجميع وهم ينظرون إلى الشباب العائدين... خوفهم أن يكونوا قتلوا الفارس وجلبوا حصانه، انتظروا حتى اقتربوا منهم سألهم الشيخ:

_ من يكون هؤلاء؟

_ إنهم أبناء عمومتنا... أشار الشيخ بيديه مرحباً بهم، لكنه قال باستغراب حين رآهم يقتربون كثيراً من المنازل:

_ أراهم يقودون حصانا خالياً... ثم تأمل جيداً وأردف:

_ لكن هذا الحصان يبدو لي إنه لأحد رجال قبيلتنا... وصاحبه سالم... أنا أعرف الحصان جيداً وأميزه من سرجه المزخرف ولونه المبرقع... ما الذي حدث؟

_ صاحب هذا الحصان أطلق النار عليَّ وقد نجاني الله منه... الرصاصة مرت من أمام وجهي، فقال الشيخ عبد الله:

_ إنه قذر وخبيث... وأرجو من الله ألّا يكون قد قُتل على يد رجالكم... فهو منا وإخوته طردوه من القبيلة لسبب سأشرحه لكم فيما بعد... ولكن أن يصل الأمر إلى حد القتل... شيء مرفوض لا نرضاه ولا نقبل به، كما أن إخوته وأبناء عمومته لن يتركوا ثأرهم... تفضلوا وأدخلوا فوراً، وأنتم في أمان... أنا سأنتظر رجالكم في الخارج كي أتصرف في حال وقوع شيء.

ها هم اقتربوا كثيراً فصاح الشيخ مرحباً... ومستفسراً:

_ أين صاحب هذا الجواد؟! هل قُتل؟

فقال أحدهم:

_ بل ترجل عن جواده واختفى بين صخور الوادي عندما كدنا نطبق عليه ونمسكه! بحثنا عنه كثيراً، ولكنه ربما اختبأ في أحد تلك الكهوف الكثيرة، والحصان لم يساعده على الهرب لوعورة المكان... فقال الشيخ:

_ الحمد لله... تفضلوا الآن... لقد خشيت أن تكون بالأمر جريمة قتل، وتتعرضوا لمضايقات هنا وثارات فيما بعد... لكن أحمد الله مرة أخرى... هيا تفضلوا وادخلوا.

دخل الجميع إلى خيمة الشيخ عبد الله بعد أن أمر غلمانه بأخذ خيول الضيوف لإطعامها العلف وسقايتها، والاعتناء بها... بدأ الشيخ الحديث مرحباً ثم قال:

_ كما تعلمون تقضي عادات أهل البادية ألّا يُسأل الضيف قبل مرور ثلاثة أيام على وصوله عن اسمه وسبب زيارته. ولكن إذا كان لديكم شكوى أو طلب عاجل تفضلوا به... هو مقضيّ بإذن الله...

_ نعم لدينا يا والدي أمر خطير...

_ تفضل يا ولدي أخبرني... هات ما عندك.

أراد جزاع أن يتكلم وهو أصغر أبناء عمومته، لأنه هو صاحب العلاقة... فالعروس التي اختطفت هي عروس أخيه، لكنه نظر بعينيه إلى رفاقه فلم يجد زيداً فقطع الحديث الذي بدأ به:

_ أين زيد؟ فقال أحد الذين طاردوا سالم:

_ كان معنا ولم ننتبه لاختفائه سنخرج للبحث عنه.

عندها خرجوا من باب الخيمة وإذ بزيد يظهر شبحه من بعيد، ويقترب من المنازل، ثم يمر بين البيوت حتى وصل إليهم.

فسألوه:

_ أين كنت يا زيد؟ ولماذا تأخرت؟

_ لقد تركتكم وعدت... ثم اختبأت خلف صخرة أراقب خروج صاحب الحصان الذي أخذتموه معكم، وكنت قد تركت جوادي بعيداً... لم يمضِ وقت طويل حتى خرج شاب في مقتبل العمر يحمل بندقية وتبعه اثنان وسمعت شجاراً بينهم... كأنهما يطالبانه بدين أو حاجة ما! ويبدو أن الشاب أنكرها عليهم... وعلى الرغم من أن الصوت كان مسموعاً إلا إنني لم أفهم حديثهم جيداً... كما لم أستطِع ترك مكاني والاقتراب منهم، خشية أن يراني أحد، لكن حينما ذهبوا وابتعدوا وتواروا عن نظري، عدت إلى حيث تركت جوادي... ها أنا قد عدت إليكم. دعاه الشيخ لدخول الخيمة وكان أحد شباب القبيلة قد نحر للضيوف عدداً من الخراف... قال الشيخ: تفضل يا ولدي أكمل ما بدأت به... أنت تعلم أصول الضيافة... أنتم تعلمون في غير هذا الحال لا يُسأل الضيف عن اسمه أو حاجته إلا بعد ثلاثة أيام... لكن أرى أن لكم حاجة عندي مستعجلة... تفضلوا... قال جزاع:

_ يا شيخ عبد الله، نحن سمعنا بكرمك وطيب أخلاقك... نحن أهل الفتاة التي خطفها أحد شباب قبيلتكم وسأختصر عليك الحديث... لقد أخبرنا

الفتى راعي الإبل بالقصة وإنك وبختة... وطردتم الخاطف من القبيلة... وإن الفتاة أصبحت في ضيافتك، فقاطعه الشيخ:

_ إن كل ما تفضلت به يا ولدي صحيح، وإن سالم اختطف الفتاة دون علمها، وظن أنها ستقبل به بهذه الطريقة، وإننا سنتركه يفوز بهذا التصرف المشين، وكما تعلم إنها عادة سيئة متعارف عليها عند القبائل... لكن عندما سألنا الفتاة عن علاقتها به قالت:

_ إنها لا تعرفه ولم تَرهُ في حياتها سوى مرتين أو ثلاثة على الغدير وكانت مع أخيها، واستغل الفرصة إحدى المرات حين لاذ أخوها لحظة، فسألها الزواج منه فتبسمت وأشارت بالقبول به على أن يخطبها من أبيها، وربما ظن إن سكوتها وابتسامتها علامة تجيز له أن يتصرف بأية طريقة... وأن آخر مرة رأته حين نزلت من هودجها وعرفت بأنها مختطفة... ثم أضاف الشيخ:

_ لقد قالت لي أيضاً: إنها لم تعده بشيء ولم تكلمه بعدها إطلاقاً... فلو كان بينهما علاقة حب، وغير معقود قرانها، ثم جاءت بخاطرها وبرأيها فهذا أمرٌ آخر! أما بهذه الطريقة التي خطفها بها قسراً وخداعاً، ومع علمه بأنها امرأة على ذمة رجل آخر... فهذا مرفوض تماماً في عرف جميع القبائل... لقد

نال نصيبه بالأمس. عندها ضربه إخوته وطردوه من القبيلة... تفضلوا ريثما نجد حلاً لهذا الموضوع... نحن لا نأمن بعدها من عداوة لا تنتهي مع قبيلة الشيخ صابر، ومع قبيلتكم أيضاً، وكما تقول أنت أيضاً بأنها أصبحت بحكم الشرع زوجة لأخيك، نعم نحن قررنا أن نعيدها لأهلها، ونسوق معها قطيعاً من الأغنام كاعتذار منا عما حصل، وطالما أنتم الآن هنا وأنتم أهلها فستأخذون هديتكم والفتاة معاً... في الوقت الذي ترغبون فيه بالرحيل، وستسوقون قطيع الأغنام أيضاً كما قلت هدية مني لكم.

شكره جزاع واعتذر عن قبول الهدية، والسبب أن طريقهم طويل جداً، ولا يمكن للقطيع أن يتحمل السير مع قافلتهم تلك المسافات الطويلة، ولا يوجد في طريقهم واحات ماء كافية، خاصة وأنهم في فصل الصيف...

تناولوا طعامهم وباتوا ليلتهم، وفي صباح اليوم التالي ودّعوا الشيخ عبد الله ورجاله، وأركبوا شيماء هودجها على ناقتها نفسها، ثم غادروا منازل الشيخ عبد الله شاكرين وداعين له بالتوفيق، وكلهم عرفان بالجميل، أما الشيخ عبد الله فوعدهم بتلبية دعوتهم لزيارة قبيلتهم عندما يتسنى له ذلك...

أحاطوا هودجها من كافة الجهات خشية أن يُعتدى عليها من جديد، أو تتعرض لسوء ثم تابعوا طريقهم بحذر شديد.

فجأة... وبينما هم في طريق العودة وإذ بعددٍ كبير جداً من الفرسان يقطعون طريق وجهتهم في معبر ضيقٍ، من المستحيل تجاوزه أو المرور من جانبيه، والجميع يشهرون بنادقهم ورماحهم وسيوفهم!

توقف الركب... تقدم جزاع إليهم وحده يطلب الأمان، ويسألهم عن غايتهم... وماذا يريدون؟ بعد أن ترك سلاحه مع رفاقه، وأخذ يتقدم نحوهم وهو يحمل راية بيضاء كدليلٍ على نيته في السلم... بقي رفاقه ينظرون وينتظرون وقلوبهم واجفة مما لا يعرفون ما الذي سيحدث؟ وكانت المفاجأة الكبرى التي أذهلت رفاقه، حين شاهدوا جزاع يصافحهم واحداً تلو الآخر ويربت على أكتاف بعضهم ويعانقهم!

تساءل رفاقه فيما بينهم باستغراب عمَّن يكون هؤلاء؟ بعد أن كانوا يتهيؤون للدفاع عن أنفسهم في حال حدوث معارك أو شجار بينهم... إلا أن بعد المسافة بين الفريقين جعلهم لا يستطيعون تمييز الوجوه حتى شاهدوا جزاع يشير إليهم بيده مطمئناً، ثم أخذ يناديهم أن يأتوا جميعهم إليهم... اقترب رفاق جزاع من المجموعة، وهم يسيرون حول الهودج من جميع جهاته لصد أي اعتداء عليه، ولكن ما أن اقتربوا حتى عرفوا بينهم

الشيخ صابر والد شيماء وبعضاً من أفراد قبيلته وبني عمومتها... سلَّم الجميع على بعضهم وتبادلوا الترحيب بالقبلات...

كان الشيخ صابر والد شيماء، عندما شاهد رجال جزاع ورفاقه قادمين... ثم بدا لهم الهودج من البعيد، ظنّ أن هذه المجموعة هي من اختطفت ناقة شيماء ومن عليها... عندها طلب من رفاقه أن يكمنوا لهم في هذا المنحدر الضيق، ويقطعوا الطريق أمامهم... لكن حركة جزاع ومجموعته الهادئة وأصوات حداهم وأغانيهم التي كانت تصل إليهم من البعيد، جعلتهم يتريثون في الهجوم عليهم.
لذلك توقفوا ليستطلعوا الأمر أولاً... وجاء هذا الخيار الصائب في وقته ومحله.

المهم تبادلوا الأحاديث فيما بينهم، وشرح لهم جزاع جميع ما مرّ بهم، ثم ركب حصانه وأراد متابعة السير. وأراد أن يستوضح كيف علموا بخطف ابنتهم فوجه حديثه يسأل الشيخ قائلاً:
_ ما أدراكم بخطف شيماء وناقتها؟ وكيف جئتم إلى هنا؟ فقال الشيخ:

_ جاءني شاب منذ أيام، قبيل بزوغ الفجر وطلب رؤيتي على وجه السرعة، وأخبرني أن ابنتي اختطفت وإن من اختطفها أحد الشباب من قبيلة الشيخ عبد الله، وإن شيخها هو من ساعده على ذلك وتستر عليه. وعندما سألته أين الفتاة الآن؟ قال:

_ ابنتكم عنده أي عند الشيخ عبد الله... لهذا جمعت رجالي وجئنا مسلحين لإنقاذ ابنتي والدفاع عنها وعن عرضنا، لكنني أحمد الله الذي جمعني بكم قبل أن ندخل في معركة معهم... لا يعلم سوى الله ما ستكون نتائجها.. فقال جزاع:

_ صحيح إن شيماء هي ابنتكم... لكن هي اليوم من شرفنا وعرضنا، وإن كل ما أخبرك به الشاب صحيح ما عدا إن الشيخ ساعده... أو سمح له بذلك، بل إن الذي حدث هو العكس تماماً فالشيخ عبد الله لم يكن له دراية بالأمر وما أن علم بالأمر حتي كرم الفتاة واستضافها بين حريمه، بانتظار إعادتها إلى أهلها، أما الفتى فهو نفسه الفاسق الذي حمل لكم النبأ، فقد ضُرب وعُنّف أيضاً من قبل أقرب الناس إليه، ووصف بالفاسد وطُرد من العشيرة كما قلت لك، وقرروا إعادة الفتاة إلى ذويها أي أنتم ومعها قطيع من الماشية تعبيراً عن حسن نواياهم... ورأيي أن تنسحبوا

وتعودوا إلى دياركم الآن... شيماء معنا وفي هودجها مع وصيفتها... انظر ها هو الشاب الذي يقود ناقتها يناديك الآن... يبدو أن ابنتك تريد رؤيتك... على الفور ذهب والدها ثم ترجل عن حصانه وأنيخت ناقتها لتنزل شيماء على الأرض.

قبّلت يدي والدها، وسلمت عليه وهي تبكي شوقاً وخوفاً من أن يتهمها بشيء ما... كما أن أقاربها أيضاً ذهبوا معه للاطمئنان والسلام عليها... وبعد عتابٍ من والدها، ومحاولات عديدة منها لتبرئة نفسها أمامه

أكدتّ له بأنه لا توجد أية علاقة بينها وبين الخاطف... وزادت قائلة:

_ يا والدي أنت تتذكر عندما جاء إليك شابٌ خاطباً لي منذ أكثر من سنة وطلبت رأيي فيه فتركت الرأي لك، ولكنك رفضته... وأنا لم أرَه سوى ثلاث مرات على الغدير، والمرة الأخيرة عندما وصلنا ديار الشيخ عبد الله عندما كنت مخطوفة... ولم أكن أدري بشيء من ذلك... لكنني استغربت كيف طلب مني النزول بعد أيام فقط من الرحلة إلى ديار سميحان، بل تفاجأت حين قال وصلنا: لكن حين شاهدته وعرفته علمت بأن في الأمر ما يريب خاصة عندما عرفني بنفسه قائلاً:

_ أنا سالم حبيبك... جئت بك لتكوني زوجتي...

عندها أخذت أستغيث وأستنجد حتى وصل خبري للشيخ عبد الله الذي لم يقصر معي، بل حماني وأخذني إلى بيته ووضعني مع نساء بيته معززة مكرمة.

فجأة... ضرب والدها يداً بيد، ثم ضرب بيده على صدغه وهو يقول:

_ يا إلهي لقد تذكرت... نعم هو من جاء إليّ منذ مدة قُبيل طلوع الفجر يحرّضني على قبيلته... لكنني لم أميزه بسبب الظلام... نعم إنه هو الذي أخبرني بأنك خُطفت! وجاء ليقول لي:

_ إن الخاطف هو من قبيلة الشيخ عبد الله... وإن الشيخ نفسه تواطأ مع الخاطف، وسمح له بتلك الفعلة، نعم صحيح إنني لم أرَ وجهه بسبب لهفتي عليك. لكن شككت بأنني قد سمعت هذا الصوت فيما مضى وهو الذي جاء لك خاطباً من قبل وأنا متأكد إنه هو... لم أسأله اسمه... نعم إنه هو! إنه هو، ذلك الخبيث...

وفيما هما يتبادلان الأحاديث... نظر أحدهم إلى قعر الوادي... وهم كانوا يقفون على تلة أعلاه، وقال:

_ انظروا... هناك مجموعة من الأشخاص تحاول الاختباء وهم يتوارون خلف تلك الصخور العالية في مجرى الوادي... ثم قال:

_ لمحت قبل وصولكم حركة غريبة هناك... يجب أن تأخذوا حذركم...

وكان الغلام زيد قد انتبه قبلهم إلى أولئك الذين يتسللون بين الصخور! بعد أن لاحظ تلك التحركات منذ الأمس، حين أطلقت الرصاصة على جزاع.

عندها انسلَّ بين الصخور حتى اكتشف الكهف الذي يختبئون فيه! فتسلل قبل لحظات؛ دون أن ينتبه أحد منهم إلى ذلك... توارى خلف صخرة قريبة جداً من الذين رآهم الشيخ صابر يختبئون بين الصخور... أخذ زيد يراقبهم... وكان في المرة الأولى قد اكتشف مكانهم... وأخبر جزاع بذلك يوم أمس في مجلس الشيخ عبد الله، وكان عددهم أربعة أشخاص... اثنان منهم يحملان البنادق؛ والآخران السيوف بأيديهم... ولاحظ إنهم الآن يلوذون خلف صخور الوادي.

استطاع زيد بخفته أن يصل إلى مكان قريب جداً خلفهم، دون أن يلحظوه، فشاهد اثنين منهم يسددون بنادقهم نحو جزاع وجماعته، استطاع زيد

سماع بعض ما كان يدور بينهم، وما كان يحدث عندهم... سمع الشخص الذي نادوه بطراد يقول للرجلين الذين لا يحملان بنادق:

_ أنتما تسلّلان إلى الخلف وجهزا الخيول للهرب، حيث تعلمان مكانها خلف ذلك المنعطف في جانب الوادي... عليكما أن تُقرّبا الخيول، ثم حاولا التستر واحذرا من أن تُكتشفا. وما أن تسمعا صوت إطلاق الرصاص حتى تقودا الخيول نحونا بأسرع ما يمكن للفرار... ذهب الاثنان كما أمرهما طراد... ثم قال لزميله الذي يحمل بندقية: يجب عليك الحذر، فما أن نطلق النار على جزاع، يجب علينا أن نلوذ بالفرار معاً.

وتمترس خلفه بخطوتين وفي نيته أن يطلق زميله النارعلى جزاع وما أن يراه سقط؛ فيطلق هو عليه النار ليتخلص منه... ثم يتهمة بقتل جزاع، وإنه ثأر له وقتل قاتله، عندها يخرج بريئاً من جريمته ويستعيد مكانته أمام قبيلته، وفي الوقت نفسه يكون سالم قد تمكن من الخلاص من سميحان، وقد علمنا ما جرى بينه وبين سميحان قبل أيام عندما حاول سرقة جواده وتركه ليموت جوعاً وعطشاً في البراري... بذلك تكون شيماء قد ترملت قبل أن يدخل عليها سميحان وعادت إلى أهلها، فيعود

لخطبتها... كان زيد يراقبهم ويسمع حديثهم وقد وارته الصخور الكبيرة خلفها، لضآلة حجمه...

كانت الشياه ترعى حولهم فضاعت حركته بين تلك القطعان... عرف زيد إن طراد هذا يعمل مأجوراً لصالح سالم، ويقود بقية الرجال من خلال أوامره للذين معه، وهؤلاء جميعهم عصابة مستأجرة ومن قطاع الطرق في المنطقة... ومن العصابات التي تختار طرق القوافل لتشليح المارة ونهبها...

حار زيدٌ فيما يفعل فهو لا يحمل سلاحاً سوى الخنجر وعصا قصيرة، وإن بُنْيته الصغيرة لا تمكّنه من السيطرة على أي واحد منهم، فكيف بالاثنين معاً... ثم سمع زيدٌ من يقول لأحدهم:

_ ماذا فعلت يا سالم مع سميحان؟ هل قتلته؟ أم سرقت جواده وتركته شريداً في البادية حيث أردت أنت؟

_ كلا بل هو من عفا عني بعد أن انتصر عليّ... لم أتمكن من التغلب عليه... (وهو الذي مرت قصته معنا أثناء عودة سميحان إلى قبيلته) فقال له:

_ المهم الآن لا مجال للنقاش... سدّد جيداً هو ذاك جزاع الذي يركب على الحصان الأبيض... حاول ألّا تخطئه، ولنرمه معاً عندما أقول لك ذلك...

ولكن لننتظر وصول رفاقنا للعودة بالخيول الى أقرب مكان إلينا. إن هذا الرجل هو سبب البلاء كله، هذا الذي اسمه جزاع، ويبدو إنه اكتشف حيلتنا عندما خطفنا ناقة شيماء... ثم لن نألو جهداً لتصفية حسابنا مع سميحان.

كنت أتوقع أن تتابع القافلة سيرها برفقة الهودج الفارغ دون أن يكتشفها أحد... وأضاف: يجب عليك أن تسدد بندقيتك جيداً ولا تخطئه كما أخطأته في المرة السابقة، وجعلته ينجو بغبائك... لو أنك قتلته في المرة الأولى أو أصبته على الاقل... لشُغِلَت جماعته به وبإسعافه... ربما عادوا به من حيث أتوا، لكنك عقّدت الأمر حين أخطأته... وبابتسامة ساخرة، أكرر حاول أن تصيبه في صدره أو رأسه وأنا سأطلق على الرأس، (وفي نيته طبعاً رأس زميله، بمجرد إصابة جزاع). ثم بعدها نترك المنطقة بالكامل، وكل منكم يأخذ حقه ويرحل حيث شاء... وكان يقول بنفسه موجهاً كلامه لشريكه:

_ أيها الغبي! ستلحق به فوراً، وسأترك جثتك وجوادك، وأتخلص أنا من التهمة وأنجو... ألا يكفي إنك بالأمس أخطأته، ولكن إن أنت لم تصبه

هذه المرة، أنا من سيقتله وأنا من سيأخذ نصيبك من مال سالم أجرتنا... إذاً فهو ميت لا محالة.

حار زيدٌ فيما سيفعل، وكان يرى سالم ينظر إلى الخلف بين الحين والآخر كي يطمئن على وصول الجياد، ويرى رفيقيه المكلف بقتل جزاع، والآخر المكلف بقتل قاتله، اللذين سيقوم سالم بقتلهما بعدها والهرب عن الأنظار فترة، ثم يعود لمتابعة خطته للزواج من شيماء...

كان خوف سالم الأكبر من أن يُغيّر جزاع مكانه... أو أن ينزل عن حصانه فتضيع فرصته هذه، ولكن ها هم رفيقاه قد أحضرا الجياد وها هي الجياد تقترب فقال لصاحبه:

_ انتبها... صوِّبا جيداً، ولا تطلقا دون أمر مني.

الفصل العاشر

طريق الخير

لاحظنا بعد هرب سالم من قبضة سميحان، أنه عاد من فوره إلى الوادي الذي عرفنا بمحاولاته مع العصابة المؤجرة للانتقام من جزاع، ويبدو أن في نيته بعد ذلك العودة لملاحقة سميحان مع بعض أفراد العصابة للبحث عنه وقتله... أما الآن لا بد لنا من العودة إليه أي سميحان لنعلم كيف كان طريقه بعد أن لحق به ابن عمه... عندما كانت أحداث مختلفة تدور ما بين منازل الشيخ عبد الله وبين العصابة في الوادي...

كان سميحان وشهوان ابن عمه ما زالا في الطريق، يجدّان في محاولة الإسراع للوصول إلى القافلة، ولا علم لهما بما يدور في الأماكن البعيدة... لقد سبقنا أحداث اليوم ببضعة أيام لأسباب لا تخفى على القارئ المتتبع كي ترتبط أحداث الرواية...

وهنا لا بد لنا من العودة قليلاً إلى سميحان ورفيقه شهوان، مضت مدة على تلك الأحداث بين وصول القافلة وسفر سميحان باتجاه جماعته المتوقفين في الحرّة. حوالي عدة أسابيع.

الآن طريقهما نحوهم يصلان الليل بالنهار ولا ينامان إلا أقل من حاجة الفرد... يمتطيان جواديهما ويرافقهما ناقة ودابة... يسيران بأقصى ما

استطاعا من سرعة، ولا يكادان ينامان، وعندما يتعب جواد أحدهم يريحه بالركوب على الجمل أو الدابة... ولا شغل لعقل سميحان سوى مصير عروسه ومعرفة ما حدث لها وما قد يحدث لشباب قبيلته، ولنا عودة لمتابعة رحلته مع رفيقه...

أما هناك عند زيد بعد أن تركناه في موقف لا يحسد عليه وفي حيرة من أمره... يفكر كيف سيتصرف مع سالم ورفيقيه، بعد أن سمع اتفقاهما على إطلاق النارعلى جزاع، ثم بعد ذلك يلوذان بالفرار. فكر زيدٌ بالعديد من الاحتمالات... وكيف سيتصرف؟! إن أراد أن ينبه جزاع وركْبه بأن يصرخ بأعلى صوته... حتماً سيكتشف أمره ويطلقون النار عليه فوراً ويقتلونه، وإن حاول الفرار فسيكتشف ويقع ضحية مروءته، ولكن ربما ينجو جزاع... قال في نفسه:

_ في الوضع الحالي... جزاع ميتٌ لا محالة، وأنا أيضاً لن أنجو من القتل... وجوادا اللصين أصبحا على بعد عشرات الخطوات من هنا... عندها سينجوان بالهرب بعد تنفيذ جريمتهم ... يجب عليّ أن أتصرف... وكان قد علم بنية سالم على قتل زميله.

أخيراً عزم زيد على أمر نفذه بسرعة البرق... قفز من مكانه وهو يحمل خنجره بيمناه وعصاه بيسراه، وبسرعة البرق أيضاً شك سالم بالعصا في ظهره ليظن أنها بندقية... وجهز خنجره ليطعنه في رقبته إن رفض إطاعة أوامره، وصاح به:

_ ارمِ سلاحك فوراً أنت ورفيقك... أذهلت المفاجأة سالم وانطلت الحيلة عليه، فرمى بندقيته وكذلك فعل رفيقه مثله... تناول زيد البندقية وصاح بهما كي يسيرا أمامه.

نجحت خطته، وسمع رفاقه صرخته... شاهدوه يتجه نحوهم وهما أمامه، وأخذ يصيح بالركب أن يقبضوا عليهما...

تم القبض على سالم ورفيقه، أما الاثنان الآخران اللذان كانا قد أوصلا الجوادين... ما أن رأيا ما حلّ بزميليهما حتى فرا بعيداً وتواريا عن الأنظار.

بعد مطاردة من رجال الشيخ صابر طالت قليلاً... قُبض على الآخرين وأُحضِرا أمام جزاع والشيخ صابر.

اختلفت الآراء على كيفية الانتقام من هؤلاء المجرمين... أخيراً استقر الرأي على تسليمهما إلى الشيخ عبد الله زعيم قبيلة سالم ليرى رأيه فيهم ويتصرف معهم... بعد أن تبين لهم إن أكثر رجال العصابة من أفراد قبيلته!

سار جزاع بموكبه من جديد حتى وصلوا الى رفاقهم الذين كانوا ينتظرونهم في الحرّة المتوقفة فيها القافلة منذ اكتشاف خطف شيماء.

وما إن التم شملهم حتى تحركت قافلتهم نحو ديارهم والسعادة ترفرف عليهم جميعاً... لم يسيروا أياماً حتى تلاقى ركبهم مع سميحان ورفيقه القادمين للبحث والاطمئنان عن أقاربه وعروسه.

بعد السلام وحكايا مغامراتهم أثناء العودة إلى ديارهم، وأصبح الجميع على وشك الوصول... ذهب من يبشر القبيلة بقرب وصولهم.

أقيمت الاحتفالات والزينات والطبل والزمر ابتهاجاً بوصولهم سالمين. وامتدت الاحتفالات أياماً أطول بزفاف سميحان على شيماء... مرت أيام بعدها لا يعكر صفوهم أي شيء... السعادة عمت على الجميع.

في صباح أحد الأيام خرج سميحان من بيته صباحاً... لفت نظره في البعيد موجة من العجاج تتجه نحو منازلهم، لكن الغبار الكثيف يخفي ما وراءه... إنما يقترب بسرعة... استغرب الأمر وهو يعلم بأن مواشيهم لا يمكن أن ترعى في تلك الأماكن مطلقاً... وهو الطريق نفسه الذي جاء منه مع قافلتهم وأفراد قبيلته منذ فترة قريبة، أي طريق القوافل الطبيعي الذي

تسلكه جميع القبائل المتجهة إلى الشمال... قفز على جواده ليعود لتحذير قبيلته من غزو قادم نحوها، بعد أن عجز عن تفسير ما يرى... فالقوافل العادية لا ينتج عنها ذلك الكم الكثيف من الغبار... ومع ذلك فضل التأني قليلاً... أسرع سميحان بجواده صاعداً تلة كان يتشاءم منها... تلك التلة التي صعد عليها سابقاً ولم يجد مع القافلة عروسه ولم تكن تحوي سوى نساء القبيلة فقط... أشرنا إلى أن هذه التلة من قبل، وأن القوافل لا بد أن تمر بمحاذاتها دائماً...

فجأة خرج الغبار عن الطريق وتحول مساره باتجاه منازلهم... قبل أن إلى يصل التلة... وهنا عزم الأمر على أن يطلق عدة طلقات لتحذير القبيلة! لكن هبوب موجة من الرياح العاتية با تجاه الغبار كشفت ما خلفها، فتبين أنها عبارة قطيع من المواشي! انتظر... ما أن اقتربت منه حتى تبين له أنها قافلة تسوق أمامها قطعاناً.

عرف رايات الشيخ عبد الله التي ترفرف فوق مجموعة من شباب القبيلة، يسوقون قطيعاً كبيراً جداً من المواشي وبعض النوق المثقلة بالأحمال... سلموا ورحب بهم أيما ترحيب وسار معهم إلى منازلهم.

لفت نظر سميحان وجود رجل مقيد معهم يركب على دابة... سأل الشيخ عبد الله:

_ لماذا؟ ومن يكون؟

أجابه وهو ينعر الرجل المقيد بقضيب في خاصرته:

_ هذا الرجل هو غريمك سالم الذي خطف عروسك في أول شروره... ثم حاول قتلك في الثانية! لكن الله نجّاك من غدره بأن أخطأتك رصاصته، والثالثه حين عطّل البطل الصغير زيد محاولته الجديدة بقتلك! وقد هدرت القبيلة دمه وكذلك إخوته... ولكن أُمه رفضت إلا أن يكون أمر عقابه بين يديك... أما الباقون فقد قمنا بعقابهم بطريقة تردعهم مدى الحياة...

فقال سميحان:

_ كيف تم ذلك؟

_ رحلناهم إلى المدينة وسلمناهم لولاة الأمر... ونحن جئنا لنبارك لك زواجك وهذه هديتنا أمامك... وأشار إلى قطيع الغنم وعشرات النوق والجمال، وتركنا أمر سالم لكم... أنتم الذين تأذيتم منه، قد أقرّ بأنه لم يطلق هو النار عليك، إنما هو من اشترى زميله لهذه العملية مقابل مبلغ من المال... واعترف أنه في المرة الثانية لم يكن يريد أن يطلق النار عليك

بنفسه... لذلك دفع زميله أيضاً كي يقتلك على أمل أن يتخلص منه بعد أن يقتلك!!

والآن الرأي رأيك فيما تريد أن تفعل به... مصيره بين يديك.

سأل سميحان:

_ هل أُمه معكم الآن؟

_ لا، وليس لها حمل على السفر الطويل، ولا تريد أن ترى عقاب ابنها أمامها... قال سميحان:

فكوا قيده الآن... صاح الشيخ عبد الله:

_ لكنه قد يهرب...

_ إلى أين؟ انظر حولك... وكان حضور رجال القبيلة حولهم يقطع أي الجواب... ويحملون بين يديهم مئة بندقية.

ثم تابع كلامه وهو يضحك:

_ سيصنعون من ظهره غربالاً... ولا أعتقد أنه سيتصرف بهذا الغباء ويهرب! ولكن غداً سنرى رأينا به... تفضلوا الآن إلى المنازل.

حار سالم بأمره بعد أن فُك قيده، وأخذ يناجي نفسه: هل أهرب؟! ولكن الجميع مسلحون بالبنادق. وقال بنفسه وهو يرتعش رعباً:

_ إن عشرات الطلقات ستنفذ من ظهري، ولكن لأجرب طلب الرحمة من سميحان علّه يخفف عقوبتي أو يعجل بها... ركض نحو سميحان وهو يطلب الرحمة راكعاً.

_ الرحمة ستجدها عند ربك! وأدار وجهه مبتسماً وهو يتجنب أن يرى سالم وجهه حتى وصل الجميع منازل القبيلة... وذهب معه الرجال إلى خيمته... قال وهو ينظر إلى الجميع:

_ أين المجرم؟

ركع سالم أمامه وهو يطلب الرحمة من جديد... رد سميحان عليه:

_ أنت هنا ضيف عندنا ونحن سلمنا أمرك وذنبك لصاحب الأمر، لعلك تتوب وتستغفر ربك. ستكرّم عندنا وتعود مع الشيخ عبد الله، وهو الذي سيعاقبك على أفعالك بما يناسبه... أما نحن فقد أعتقناك لوجه الله ...ونجاك منا ذكاء والدتك التي أرسلتك لتعاقب عندنا... أنت حر وضيف عزيز وقد سلمنا أمرنا نحن أيضاً لله.

"الآن علينا أن نعود لنتابع الشق الآخر من روايتنا.
نعود لفارس الشاب الذي يبحث عن طريقة للفرار من آسريه وينتظر الفرصة لتحقيق أمله للهروب من خاطفيه".

إنها أيام يحصيها، ومرت... ثم تتحول إلى أسابيع وبعدها إلى شهور... لم يعد له من داع لحساب السنوات بعدها... لقد قطع الأمل وفقد الرجاء ولكن ما عند الله أبقى لعبده من فرج سيأتيه يوماً.
جلس فارس فوق ربوة مرتفعة يراقب القطيع كعادته كل يوم، ويرعى به... ويتسلى بالعزف على مزماره بأنغام حزينة...
فجأة لاح لناظريه من بعيد خروج جملين من منخفض... يعتلي كل جمل رجل... ظن أن هؤلاء بداية لقافلة ضلت طريقها، انتظر قليلاً وهو ينزع مزماره من فمه ثم يهمس لنفسه مستغرباً:
_ ليس من هنا طريق القوافل! ثم ظهر رجل آخر يسير خلفهم على دابة توقع أن يكون على بغلة تسير خلفهما، والجميع يسيرون باتجاه منازل القبيلة، لكن التلة التي يقف عليها ما زالت تحجبهم عنها... على الفور أخفى مزماره في عبه وقام من مكانه بسرعة البرق، بعد أن نظر نحو المنازل

وتأكد له أن أحداً لم يرهم حتى الآن... فهم قادمون من منحدر لوادٍ خلف التلة التي كان يقف عليها، هرول نحوهم مسرعاً... ألقى السلام عليهم... وسألهم:

_ أين تقصدون يا إخوة العرب؟ فأدلكم.

_ نحن شعراء نتكسب من شعرنا، ووجهتنا تلك المنازل بعد أن شاهدناها خلف هذه التلة قبل نزولنا الوادي الذي رأيتنا نخرج منه... لكن قبيلة من هذه؟ ومن يكون شيخها؟ وما مدى كرم ذلك الشيخ؟ وهل يجزي الشعراء جيداً؟ فأجابهم فارس:

_ اجلسوا نتحدث ونتعارف، وسأحلب لكم شاة تروون عطشكم من لبنها.

_ أكرمك الله يا أخي لا داعي لذلك... قبل قليل شربنا اللبن من ناقتنا هذه... وارتوينا ماء من ذلك الوادي.

_ حسن... ولكنني لم أشاهد شعراء جاؤوا القبيلة من قبل... لكن أتمرون بقبائل كثيرة أجابوا:

_ نعم هي مهنتنا...

_ إذاً لا بد أنكم مررتم بقبيلة الشيخ صابر؟ وأخذ يشرح لهم أين ينزلون ومن شيخهم.

_ نعم مررنا بتلك القبيلة، لكن مضى على ذلك زمن طويل، ولكن المدهش فيها، جميع من في القبيلة، كلهم يلبسون السواد نساء ورجالاً، أطفالاً وصبية، حتى غترات الرجال التي على رؤوسهم سوداء! استغربنا ذلك، ثم علمنا منهم أنهم وقعوا في محنة شديدة منذ زمن، عندما فقدوا أحد أبنائهم مع قطيعه في ظروف لم تفسر حتى ذلك الوقت... لم يجدوا أثراً له ولا لقطيع الغنم الذي كان يرعى به... حتى الكلاب التي تحرس القطيع لم تعد إليهم.

نُصحنا أن نكون أضيافاً فقط... بتنا ليلتين عندهم فقط وفي صباح اليوم الثالث رحلنا ولم نسألهم عن شيء. ولكن لماذا تسأل؟!

_ أنا الفتى المفقود منذ سنين، والقطيع الذي كنت أرعى به استولى عليه رجال هذه القبيلة التي تقصدونها... أرجوكم أن تأخذوني معكم... أنا لا أملك هنا شيئاً أكافئكم به، وأضمن لكم بأن أهلي سيعطونكم كل ما تطلبون... تبسم الرجال الثلاثة... وقالوا له وكأن الفكرة راقت لهم:

_ توكل على الله... ولكن نحن قادمون من مكان بعيد، وقد أنهكنا التعب والسفر وسوف ننزل ضيوفاً يومين أو ثلاثة عند شيخ هذه القبيلة، فقال أحدهم:

_ لكن ما اسم هذا الشيخ؟

_ الشيخ حمود...

_ قلت لنا إنه كريم؟

_ لا أعرف من كرمه سوى أنه يفضل قتلي على إطلاق سبيلي!

_ سنرى... ولا تخف... نحن سنبقى على ما اتفقنا عليه... سترحل معنا، عليك أن تراقب رحيلنا فجراً ثم تلحق بنا ضحى اليوم نفسه... لا تخف سنتمهل في سيرنا وبإذن الله ستبقى معنا حتى نعيدك إلى أهلك... ثم غمز به ضاحكاً... وسنعلمك قول الشعر والجر على الرباب.

أخذ المسكين يبكي ويناشدهم بالله وبرسله أن يعودوا الآن على أعقابهم ويأخذوه معهم، حيث حتى الآن لم يرهم أحد... لكنهم أصروا على رأيهم في البقاء عدة أيام، متعللين بالتعب ومشاق السفر الطويل قبل وصولهم إلى هذا المكان، وعليهم البقاء بضعة أيام للراحة والتزود بالغذاء والماء من هنا،

وما يمنحهم من المال شيخ القبيلة إكراماً لقولهم الشعر ومدحهم له ... وأنهم لن يخدعوه وسيأخذونه معهم.

عند ذلك غمرته السعادة وقد وجد بهم الخير ووثق بكلامهم... عندها عاد فارس إلى قطيعه وأخرج مزماره ينفخ فيه أعذب الألحان بعد أن وجد باباً للفرج... وكان أن نصحوه ألّا يسبقهم بعودته إلى القبيلة، ولا يعلمهم برؤيته لهم كي لا يعرف أحد من القبيلة بأنه التقى بهم... تابعوا سيرهم بعد أن أقسموا له مرة أخرى بأنهم سيقومون بإنقاذه من الأسر الذي هو فيه...

الفصل الحادي عشر

طريق الأمل

اتفق فارس على الفرار مع الشعراء.

ولمجرد نزول الشعراء في ضيافة الشيخ حمود؛ بدأت السهرات الطويلة الماتعة التي أخذ يحييها أولئك الشعراء الثلاثة...

يجتمع رجال القبيلة في خيمة حمود الشيخ الكبيرة، وتجلس النساء خارج الخيمة، وترخى بينهم ستارة وهي أطراف بيت الشعر، ليستمع الجميع إلى ما تجود بها قرائحهم من عبارات مديح وإطناب بكرم الشيخ ومعاركه وغزواته، لكن فارس الملزم بخدمة الضيوف، وتكريمهم والترحيب بهم مع تقديم القهوة المرة المعروفة إليهم وإلى الحضور، وتوزيع المباخر بين المستمعين...

كان فارس يشاهد تلك السهرات وقلبه يتمزق وهو يستعجل مرور الأيام الثلاثة، حين يغادرالشعراء المكان ليهرب بعدها معهم... ويلتحق بهم في المكان الذي اتفقوا عليه، لأجل مساعدته للوصول إلى أهله بعد عذاب السنين الطويلة وما مر به من ظلم وفراق... لم يكن يطرب لما يجري حوله... لا لصوت الرباب ولا لإلقاء القصائد التى تمتدح الشيخ... لم تهمه الولائم التي كانت تقام على شرف هؤلاء الشعراء... فكل أفكاره كانت تسرح في ساعة لقائه بأ هله... كان هو في وادٍ وجميع من حوله في وادٍ آخر.

في الليلة التي قرر فيها الشعراء متابعة أسفارهم في الغد، طلب الشيخ حمود منهم أن يرووا له سالفة شيقة وقال يشجعهم:

_ أريد منكم سالفة بدوية تختتمون زيارتكم إلى مضاربنا... إن كانت شيقة وجميلة، لكم مني زيادة على عطيتي التي نويت أن أهبكم إياها، فرساً أصيلة من خيرة أفراسي، نظر القاص أي راوي القصائد إلى زميله وقال:

_ جهز الرباب... فما أروي مقطع من القصة، وبعد أن أقول القصيدة عليك أنت تنشدها على الربابة...

ثم نظر إلى الشيخ حمود ثم إلى الحضور وقال:

سأروي لكم قصة المبسوطة مع سكران بن سراح شيخ الشرارات في غور الأردن، مع خلف بن دعيجة في منطقة نجد:

وبدأ يرويها والحضور بين صامت مصغٍ وباسم مترقب:

_ سكران بن سراح شيخ قبيلة مشهور بالقوة والشجاعة، وقلما يعود من غزواته إلا بكسب ثمين...

وكانت لديه (قْعِيدة) أي فتاة مقيمة بشكل دائم ربما سبية أو خليلة، وكان اسمها المبسوطة.

سمعت المبسوطة في أحد الأيام ببطولات أحد فرسان الجزيرة العربية... يدعى خلف بن دعيجة وهو أحد شيوخ الشراراة في نجد، هفا قلبها لما قيل عن كرمه وقوته وشجاعتة...

(طبعاً لا نستطيع أن نتخذ من أحد الرواة مقياساً للدقة لأنها سماعية، ولكن بحسب ما رويت أمامي)

أحد الأيام غافلت المبسوطة شيخ القبيلة سكران بن سراح، أثناء ذهابه للغزو في إحدى مناطق البادية... ووضعت نصب عينيها الهرب من دياره إلى ديار خلف وعدم العودة إلى الشيخ ابن سرّاح... استطاعت الهرب وحدها من القبيلة قبل عودته من الغزو... تقول القصة كما رويت:

_ (حطت عودها على قَعودَها ونصت ديرة خلف)، أي أنها وضعت قامتها الممشوقة على ناقتها، ثم اتجهت نحو قبيلة خلف بن دعيجة، الشيخ الذي ينزل بعشيرته في إحدى مناطق نجد...

ما أن وصلت المبسوطة إلى هناك، حتى طلبت اللجوء إلى حمايته ورعايته، وكعادة العرب الأصيلة، أمر لها الشيخ خلف بن دعيجة بيتاً مستقلاً من الشَعر، وبوصيفة تقوم على خدمتها، وبمن يحرسها ويحميها.

وعندما عاد سكران من الغزو لم يجدها أي المبسوطة... كان مولعاً بها ويحبها كثيراً ولا يستطيع الاستغناء عنها، لكن القلب وما يهوى... لم تبادله الحب ولكونها مغلوبة على أمرها كانت مجبرة على البقاء عنده.

جدّ كثيراً بالسؤال والبحث عنها، لكن جميع جهوده باءت بالفشل، ولم يصل إلى من يدله إلى أي بلاد رحلت، وأين استقرت...

بعد حوالي عام، جاءت مجموعة من الشعراء؛ ليتكسبون من شعرهم عند الشيخ سكران... وكما هو معروف أن أمثال هؤلاء الذين يتنقلون بين القبائل... كانوا الواسطة الوحيدة لنقل ونشر الأخبار بينها...

سألهم سكران عنها بعد أن وصفها لهم، فقالوا له:

_ نعم... منذ عام تقريباً، وحسب ما سمعنا، أن إحدى النساء حلّت ضيفة في قبيلة خلف بن دعيجة، لكن لا نعلم إن كانت هي أم لا، وبعد أن وصفوا له ما سمعوا من أوصافها، تأكد له أنها هي المبسوطة.

على الفور نادى أحد عبيده، وطلب منه السفر إلى ديار خلف، بعد أن أسمعه قصيدة حفظها له كي يلقيها عليه...

بعد رحلة طويلة وصل العبد إلى مضارب بني دعيجة... عندها ذهب العبد إلى شيخها خلف يلقي أمامه القصيدة التي حملّها سكران له، ومما يقول فيها:

يا ابن دعيجة يا ريت ربي عَنَا بك حِنَّا من الحُسنى عالضيف جيناك
ياه يا خلف لا عاش كلّ من شكالك وآني على مية خلف* ما تنصّاك*
أنت كم الوالد وحِنَّا عيالك وبساعة ما صحت صوت تليناك*
يا مكرم الخطّار*بالخير جتنا فعالك بالذكر ولا يا خلف ما قصدناك
لا ريد من مالك ولا من حلالك* ربي ابتلاني يا خلف مثل بلواك

(معاني بعض الكلمات):

خَلَفْ: الخلفات من النوق.

تنصاك: أقصدك بحاجة.

تليناك: مشينا خلفك، ونصرناك.

الخُطار: الضيوف.

حلالك: أرزاقك أو مواشيك.

على الفور بدأ رفيقه حامل الربابة يجر قوسه على ربابته حتى انتهى من إنشاد القصيدة... ثم تابع الراوي:

_ في اليوم التالي ذهب خلف ومعه العبد إلى المبسوطة في خبائها، وطلب منه أن يروي القصيدة على مسمعها، ويدعوها للعودة إلى سكران، وأخبرها بما أرسل لها من هدايا... لكن مساعيه لثلاثة أيام متتالية لم تأتِ بنتيجة، وذهبت دون جدوى.

رفضت المبسوطة جميع الإغراءات التي كان يعدها بها خلف، والهدايا التي أرسلها سكران مع العبد... كان كل يوم جوابها كسابقه: أي أنها لا تريد العودة إلى سكران... في النهاية انزعجت المبسوطة من تكرار طلب خلف، فقالت غاضبة:

_ إن كنت لا تريدني عندك (والله أردى ما تكون من الرجال أنت، بلاد الله مفجحة) أي أنت من أسوأ الرجال وبلاد الله واسعة، أستطيع الرحيل إلى أي بلاد.

وعندما يئس خلف من قبولها العودة قال للعبد:

_ ها أنت سمعت جواب المبسوطة بنفسك... احفظ هذه أبيات وما أن تصل للشيخ سكران القِها أمام الشيخ سكران وهذه بعضها:

اتعب على سكـران حيـث شكا لـك أريد أهديك إن كـان الله هـداك
حضراك* عن اللي ما تداني خيالك ولو شبيه الشمس ولا القمر ذاك
والـلـي اختـفـت مـا هي بحالك تنسى مقامك سروة الضو بلشاك*
عليك عـاللّـي بالـمحـبة صفا لك وعا صاحب المبدلة* غير برضاك
ودنياك مـا دانـت لِلْـواك* غير شكر الشريف وعيشة الربع وولاك*

(معاني بعض الكلمات):

اتعب: انصح.

حضراك: احذر.

سروة: من السرى.

المبدلة: المطيعة التي لا تتزين إلا بما يحلو لزوجها.

للواك: لرايتك...

وولاك: ولايتك وسلطتك.

الربع: الرفاق

ما أن انتهى الراوي إلقاء القصيدة حتى تناول رفيقه ربابته وأنشد القصيده بصوته مع العزف على ربابته.

(طبعاً جميع تلك تروى القصص والقصائد باللهجة العامية البدوية). ولكن هنا رويناها بينَ بينْ.

كان جميع أفراد القبيلة يتابعون رواية الشاعر وعازف الربابة، وهم ما بين متأوه ومتحمس ومتفاعل، إلّا المسكين فارس المنتظر فرج ربه...فقد كان في شغل عن كل ما يدور حوله، كان يدور بالقهوة المرة على رجال القبيلة... وفكره مشغولٌ باللحظة التي سيسافر فيها الشعراء ليهرب معهم... ويدعو ربه كل لحظة أن يبروا بوعدهم.

وأخيراً جاء الفرج الموعود عندما سمعهم في نهاية السهرة؛ يستأذنون بالرحيل من خلال آخر قصيدة جُرَّت على الربابة... وتأكد له ذلك عندما شاهد شيخ القبيلة يرمي لهم بصرة كبيرة من المال، ويأمر خدمه أن يجهزوا لهم مؤونة السفر، ويسرجوا لهم فوق هذا كله أحد الخيول الأصيلة مكافأة لهم وتنفيذاً لوعده.

ذهب الجميع إلى النوم؛ أما فارس فجلس في مكان بعيد بحيث يراهم... لكنه لم يستطِع أن يقابلهم مباشرة... ولا يعلم في أية ساعة من الليل سيرحلون... لكنه شاهدهم عندما جهزوا جمالهم وشدوا عليها أحمالهم، واستعدوا للرحيل، ثم بعدها دخلوا بيت الشعر الذي أمر به الشيخ لهم للإقامة فيه منذ وصولهم.

نام الشعراء قليلاً قبل الرحيل بينما فارس اتكأ على حجر جالساً على الأرض وعيناه معلقتان بباب الخيمة... لم يذق فارس ليلتها للنوم طعماً، وبقي صاحياً حتى شاهد الحركة دبت في الخيمة قبيل طلوع الفجر بقليل، نادى قطيعه الذي يرعى به وسبقهم إلى المكان الذي التقى بهم عنده قبل أيام... وظل ينتظر في مكانه حتى شاهدهم يمرون بعد الضحى من بعيد.

ساق فارس القطيع عائداً باتجاه المنازل حتى اقترب وكاد أن يصل إليها... ثم وجهه باتجاه البيوت وهش عليهم بعصاه ولوح لمن شاهده من المنازل بعصاه كي يراقب القطيع، وأشار بيده من أنه سيعود بعد قليل فظنوا أنه ترك أحد الخراف مكسوراً أو مصاباً، وسيعود لحمله وجلبه... ما فعله ليس بغريب، لأنه يحدث أحياناً، والوقت مناسب للقيلولة لذلك لم يشك أحد بما نوى... عاد فارس مسرعاً إلى حيث خبأ مؤونتة منذ الأمس ليأخذها معه، إضافة لقربة ماء كان قد جهزها منذ يومين لهروبه... عندئذ علق قربة الماء بكتفه وربط كيس زاده بطرف العصا، وحملها على كتفه الآخر، ثم نظر خلفه باتجاه المنازل وصاح عالياً بعد أن علم بأن صوته لا يمكن سماعه:

_ الوداع.... وداعاً لا لقاء بعده إلا للأخذ بثأري أيها الأوغاد... وكأن الحظ يريد أن يخدمه هذه المرة، ساعده اتجاه الريح في سيره فكان يضرب بظهره ويدفع به إلى الأمام، ما ساعده على سرعة الهرب.

تركنا الشعراء وقد سبقوه بعدة ساعات، وعندما وصلوا إلى تلة عالية صعدوا عليها يترقبون وصوله.

وكان حوار ونقاش حاد يدور بينهم، فقال أحدهم:

_ لقد ابتعدنا كثيراً، ثم أضاف: أرى الفتى لاح من بعيد جداً؟ رد عليه الثاني:

_ لقد أكرمنا الشيخ فوق اللازم ولمسنا منه كل طيب.

رد الثالث:

_ كيف تريدون منا إذاً أن نغدر به؟! هذا لا يكون أبداً... استمر الحوار بينهم زمناً حتى قال أحدهم مشفقاً:

_ وماذا سيحل بالمسكين؟ لا بد أنه لاحق بنا وهذا أكيد... إنه يقترب.

رد عليه الآخر:

_ لقد وهبنا الشيخ أحد خيوله وأموالاً لم نكن نتوقعها... ثم الكثير من الزاد والمؤونة...أنا لن أغدر به هكذا.

أما الاثنان الباقيان فقالا معاً:

_ لقد وعدنا الشاب ولن نتخلى عنه... ولا شرط بيننا وبين شيخك يلزمنا ألّا نصطحب معنا أحداً من عنده، كما لا يعلم بأننا نعرف قصة فارس... وقد رأيتم بأنفسكم كيف يعامل المسكين كعبد مدفوع ثمنه... نحن شعراء والأدب زينة الشعراء... لقد وعدنا ويجب أن نلتزم...

_ اسمعا: هناك حل معقول... ننتظره حتى يصل... وندله... ونمونه... ونؤمّنه...

كان النقاش يحتد فيما بينهم... لكنهم اتفقوا في نهاية الأمر على انتظاره لحين وصوله إليهم... عندها يبحثون معه في طريقة ترضي الجميع... وأثناء هذا الحوار كانوا بعيدين جداً، ولحسن حظه هو فقد ساعدته الريح التي أخذت تضرب بظهره، وتدفعه إلى الأمام، ومع هذا لم يصل إليهم إلا قبيل الغروب بقليل فقد كان راجلاً أما هم كما علمنا جميعهم يركبون الحيوانات... لكن الخوف من أن يلحق به فرسان القبيلة التي هرب منها، جعلته يصل إليهم تعباً منهكاً إلى أبعد الحدود، ولم يعد بإمكانه السير أكثر... ألقى السلام عليهم، ثم رمى بنفسه على الأرض كي يرتاح... كان زاده معه، ومع أن الجوع تملك منه فلم يتناول أي طعام حتى لا يضيع الوقت... كان أثناء الطريق يبل ريقه برشفة ماء كلما أحس بعطش حتى وصل إليهم...

بدا عليه الاستغراب من فتورهم البادي عليهم، والذي لم يكن يتوقعه منهم... تفاجأ حين قالوا له:

_ للا يمكن لنا أن نصطحبك... تدبر أمرك... ستجد هناك إحدى القبائل تلتجىء لها... قبيلة الشيخ مناور ليست بعيدة، على مسيرة يوم أو أكثر، سندعمك ببعض الزاد، وشيخ القبيلة رجل كريم جداً.

أشاروا له أين يتجه... وأعطوه بعض الزاد ثم تركوه ورحلوا!

وقف فارس وحيداً يشكو حاله إلى ربه، وقد أوشكت الشمس على الغروب... بحث بناظريه عن مكان ينام فيه، فلاح له أحد الكهوف في سفح التلة ليس بعيداً عنه، وما إن دخله حتى فرّت بومة تنعق بعنف خارجة ترفرف، لكنها توقفت بمكان قريب في مواجهة الكهف... فقال في نفسه:

_ ويلك... أتلحقين بي إلى هنا؟ أكتبَ عليّ أن تكوني نذير شؤم كلما سعيت لخيرٍ لنفسي؟! ولكن ما قاساه من تعب بالجري والسير ليلحق بالشعراء جعله ينام فوراً.

الفصل الثاني عشر

رجال الخير

كان البؤس رفيق فارس الدائم... والآن ظن أن الحظ حالفه بهربه... نام المسكين فوراً إجهاداً وتعباً، خاصة

إنه في الليلة السابقة لم يذق للنوم طعماً، المهم إنه الآن يغفو في نومٍ لا يخيفه فيه عواء الذئاب، ولا زئير أسود... لأنه لا يسمعهم، ولا تصورت له الأشباح التي كانت جدته ترويها له عندما كان ينام في حضنها.

فهو نائم لا يحلم سوى بالحرية... لا يخشى من عقاب الشيخ حمود، ولا يبكي أسره عند قوم يعاملونه بخوف ويمنعونه من نيل حريته أو هروبه... ولا يفكر بقصة سعدة... الأرملة التي كانت تظهر أمام القبيلة بالكمال والرأي الناصح، ولا بمحاولاتها الفاشلة فيها معه... أرادت أن توقعه بغرام كان فيه هلاكه... قفز من نومه حين مر طيفها في حلمه... لم يكن يجرؤ على نقل ما أوقعته المصادفة فيه.

رفع رأسه فجأة ناسياً موقعه من الحرية، صاح من الألم... لقد اصطدم رأسه بسقف المغارة المنخفض... نظر حوله... تذكر الآن أنه في حرية لا يعرف من أين ستأتي لها نهاية سارة... عاد بتفكيره إلى سعدة وأعمالها... عندها سوى

من جلسته ووضع خنجره في حضنه، وسرح مع ذكرياته مع سعدة وما اكتشفه! تذكر بأن عواد الذي كان يرتاح له ويشفق عليه قال له:

_ إنها امرأة مسكينة سيئة الحظ... وأخذ يروي له:

_ سعدة امرأة في عز صباها... قتل زوجها في إحدى الغزوات، وبقيت تعيش معهم في القبيلة... رفضت عروضاً للزواج تقدم بها العديد من الرجال... حتى أنها أبت العودة إلى قبيلتها البعيدة في رمال الجزيرة العربية التي جاءت منها يوماً.

ولشدة ما كانت تظهر من غيرة على القبيلة، ومن لطف وذكاء ورأي صائب، أمر لها الشيخ حمود ببيت من الشعر نصب على أطراف بيوت القبيلة منفرداً... في مكان يُرى لحمايتها... وتَرى منه لتستنجد... فيما بعد تحولت من ضيفة إلى صرح يكاد يقدس، لما أظهرت من الشرف والكرامة أمام الجميع... الكل يربي بناته على سيرتها... والأزواج يحدثون نساءهم بحسن مسيرتها، فتأكلهن الغيرة من حظوة كسبتها في كل بيت من بيوتهم.

تنادي الشاب فارس الذي كان صغيراً وأصبح اليوم رجلاً مراً وحراً... ليهرع لخدمتها في كل ما تحتاجه من من رعاية لقطيعها الصغير الذي يدخله صباحاً ضمن القطيع الكبير الذي يرعاه، ثم يفرزه لها آخر النهار.

كانت تأمر في القبيلة... ينفّذ... وكان يشكو ضيمه لله ولها... لم ير منها في البداية سوى الطِيب والطّيب... بدأ يلعب الفأر في عبّه بعد أن أصبح يرى في نظراتها بريقاً جدَّ... وبسمات وحركات في غير موضعها.

كان يفكر ولا يجد حلاً لما رأى!

بالأمس فُقد أحد شباب القبيلة... اختفى ولم يَعد... بالأمس كان يراه يذهب شرقاً نحو رسومٍ صنعتها الطبيعة، وبقيت الرسوم وضاع هو!

ومنذ أسابيع فُقد قبله شاب من زينة شباب القبيلة كان يراه فارس يتجه إلى المكان نفسه! كان يفكر بهؤلاء أين يَخْتفون... في النهاية لم يعلم سواه أين يخْتفون.

خلف تلك التلة الصغيرة جلس في منتصف ليلة غاب قمرها وطاب هواؤها... جلس يشكو لربه حاله... فكّت عقدة حيرته أصوات هامسة، واضحة ومسك يضوع وشبحان يمران في جواره... فبات صنماً ملقى بين الأشواك لا يتحرك... بل لا يجرؤ على حركة قد يكون فيها ختام حركاته.

عرف فيها سعدة سيدة العرب وقاضيتهم ومستشارتهم! تسير سعدة وابن أخ للشيخ يتأبط ذراعها ويده الأخرى تداعب ما لا يجوز لها أن تصل إليه...

خطوات قليلة ونشوات وتنهدات، وما لا يجوز لآلهة الشرف أن توصف به، أو لا يصدق منها أن تفعله، وتعود سعدة من ساحة معركتها وحيدة، ويجيء اليوم التالي بلا نواف، وسعدة أكثر الباكين حرارة، وأشد المواسين لأهل الشيخ وأخيه بفقد شيخ الشباب نواف... بكاء لا ينتهي، ودموع لا تنضب عليه وعلى حمدان من قبله... سنة مرت ليذكرهم مصرع نواف بمصرع حمدان منذ سنة... من القاتل؟ لا يعلم سواه... ولا تعرف قاتله سواها... والجاني المدعى عليه الذئب والضبع... من مزقا جسده وسحبا أحشاءه مسافات... كما فعلا مع من قبله، وكما سيكون هو عندما يجيء دوره الذي ليس ببعيد... لم يرد السكوت... لا يريد البوح، ولكن لا بد مما لا بد منه.

جلس فارس في خيمة الشيخ يفتح فمه ويغلقه على سرٍ يريد البوح به وهو يقدم تعازيه باكياً... سبقه الشيخ عندما قال له:

_ اذهب وانعِ أفراد القبيلة على ولدنا الذي قطّعه الذئب بالأمس، ولا حول ولا قوة إلا بالله... (وإنّا لله وإنّا إليه راجعون).

سكت فارس على مضضٍ... ابتلع سرها وسره وتمتم:

_ خيراً فعلت بي يا شيخي... لن تبرئني محكمة السماء أمامك من دمه... ملكة الشرف بريئة من دم المسكين المخدوع نواف، كبراءة الذئب من دم يوسف، وبريئة من دم حمدان، كبراءة الضبع من شراكتها في دمه!

يا ربي... لماذا كنت الشاهد على ما لا يجب أن أشهد؟ يا ربي... لماذا كنت أنا من عرف كيف مات حمدان قبله؟! يجب أن أهرب مهما كلفني الثمن... أموت في البراري ولا أموت بسكين سعدة، لقد بدأت تبتسم لي أكثر مما يجب... تغمرني بعطف لا يصدق، أنا الشاب الأسير... تسألني كل يوم:

_ ألا تريد الرحيل؟

ولا تقول إلى أين! الآن عرفت إلى أين تريد أن ترحلني؟! إلى حيث رحل شابان من شباب القبيلة... حمدان... ونواف.

كلا يا بنة عزرائيل... خسئت... سأرحل إلى حيث الشيخ صابر أبي... إلى حضن حسنا زوجتي... إلى حيث الأمان والحب الذي افتقدته السنين الطويلة.

أغمض عينيه حالماً... ولم يكن يعلم إنه الآن يستولي على ملك غيره هنا في هذا الكهف... وبين مغمضٍ وساهٍ قفز لحركة مفاجئة أحس بها حوله... فتح عينيه وقد نسي أين هو... لكنه لمح شريكاً له يجري وبين فكيه حمل

صغير... يبدو إنه كان صيده لهذه الليلة، جاء ليلتهمه في مأواه في وكره. فعطل عليه ساعة هنائه... عندما دخل إلى هذا المكان لم يفكر بأن له شريكاً في هذا المأوى ربما ينازعه فيه.. ويبدو إن الاثنين فقدا الشجاعة والجلد بسبب المفاجأة... هرب الوحش بصيده، وهرب فارس لينجو بجلده إلى جهة أخرى، اطمأن تماماً حين رأى الحَمَل بين فكيّ الذئب إلى أن هذه المنطقة مأهولة طالما فيها مواشٍ اصطاد منها الذئب.

تركَ فارس الكهف، وصعد إلى تلّة عالية ينظر أين هو وقد لاحت خيوط الفجر له... عندها ارتاح فكره، ورأى إنه أصبح قريباً من سهول ترعى بها قبائل أخرى لم يكن قد وصل إليها من قبل خلال أسره في قبيلة الشيخ حمود. ما إن أصبح على قمة التلة ورأى بيوت الشعر منازلهم، حتى نزل راكضاً باتجاهها، وإن كانت بعيدة إلى حدٍ ما... هنا لن يتوه عن طريقه... وإن الله أرسل له هذا الوحش ليعلمه بذلك... بأنه قد أصبح قرب المنطقة المأهولة، وهنا لا بد أن يجد فيها من يساعده... وإن الشعراء لم يخدعوه على الأقل حين قالو له إنه الآن قرب منازل بعض القبائل... سار متجهاً إلى حيث نصحه الشعراء بالأمس... وفعلاً لم تكد الشمس تنحني قليلاً عن

منتصف السماء حتى وصل إلى قمة تلة صغيرة تطل عليهم... وهناك رأى الكثير من قطعان الغنم ترعى في سهول بعيدة... حدق جيداً... تراءت له في الأفق بيوت الشعر... حمد الله كثيراً وقال في نفسه داعياً الله أن يرسل له أحداً من أولاد الحلال الصادقين ليخرجه من محنته... تناول كسرة خبز من جرابه، وشرب قليلاً من الماء، ثم انطلق هرولة باتجاه تلك البيوت... وحسب تقديره الذي لا يكذب، فأبناء البوادي بارعون في تقدير المسافات... توقع أن يصل إلى تلك البيوت قبيل غروب الشمس بقليلٍ، وهذا جل ما تمناه... أسرع بمشيته ما استطاع... وسار بخط مستقيم نحوها لا يغير اتجاهه سوى صخرة عالية لا يستطيع الصعود إليها ينظر إلى تلك البيوت... يخشى من التأخير، لأن مخاطر دخولها ليلاً كثيرة، سواء الخوف، أو من كلاب الحراسة أو من الوحوش التي تتابع الغنم من بعيد وتلحق بهم تنتظر ماشية قصرت أو كسرت أو تاهت عن القطيع ... المهم إنه اتخذ لسيره خطاً مستقيماً صعوداً نزولاً... لا يغير اتجاهه، حانت له أكثر من فرصة لأن يبتعد عن خط سيره ليسأل أحداً من رعاة القبائل الذين يمر بهم من بعيد، ولكن كان يخشى إضاعة الوقت... أخذ يحادث نفسه:

_ ليس بيني وبين أي إنسان ثار أخاف على نفسي بسببه... ثم تذكر القبيلة التي هرب منها بالأمس فأخذ يتساءل:

_ ترى أما زالوا يبحثون عني؟ وماذا لو وصل بحثهم إلى هنا؟... طبعاً هم أسرع مني على خيولهم وأنا قضيت ليلة كاملة في مغارة الوحش، ثم يعود ويطمئن نفسه وما أهميتي عندهم؟ لست بالنسبة لهم سوى عبد فر من مخدومه ولم يدفع ثمناً له...

عندما ترك القطيع كان عواد قد انتبه له عواد، وشك بتصرفه وبأنه ينوي الفرار... فتركه ينفذ رغبته،

طالما تصرف على مسؤوليته، ولا يد له بالأمر... أرسل أحد شباب القبيله لجلب القطيع، ولم يخبر الشيخ حتى الظهر، وبذلك أعطى فارس فرصة ثمينة ليبتعد عن منازل القبيلة... بلا مبالاة انتظروا عودة فارس وحين لم يعد، أوصوا الرعاة حين عادوا من مراعيهم أن يبحثوا عنه صباح اليوم التالي، وقال الشيخ:

_ لربما تَعثر الغلام وكُسر... عندها حتماً سيكون وجبة شهية للوحوش، كما حصل لنواف وحمدان من قبل، وهنا جاء دور الطبيعة البشرية... فأخذ كل شخص يبدي رأيه، ويعتقد إنه الأصوب... في النهاية أجمعوا على أن

الوحوش إما أكلته، أو لدغه ثعبان، أو مات بلسعة عقرب، أو أنه مات مسموماً... ولن تمضي أيام حتى يعثروا على ما تبقى من جثته... إلا شيخ القبيلة الذي ركبه الهم الشديد، خشية أن يكون فارس قد فرَّ ونجا... وهناك ستكون المصيبة الكبرى، فقد يعثر يوماً على أهله، ويجر عليهم وبالاً شديداً... جمع القبيلة كلها شيباً وشباباً، وأمرهم من الآن فصاعداً أن يكونوا حذرين، ويتناوبوا على حراسة القبيلة ليل نهار، خشية أن يعود فارس برجال قبيلته، حتى وإن كان يستبعد بقاءه حياً، فهو لا يعرف سوى الطريق الذي رافقهم فيه وهو طريق المهالك، ولا توجد بالأصل طرق أخرى أقرب منه، ولا يستطيع رجل بمفرده قطع ذلك الطريق، فحتى القوافل تعاني الأمرين أثناء رحلتها.

الفصل الثالث عشر

أملٌ

ها هو فارس أصبح الآن قريباً جداً من منازل القبيلة التي أراد اللجوء إليها، وعلى مشارف بيوتها ... نظر إلى مواقع البيوت، حتى ميز أكبر بيت من الشعر بينها... توقع أن يكون هو بيت شيخ هذه القبيلة، ثم أطلق ساقيه بأقصى ما استطاع من سرعة نحوه... حتى إن الكلاب التي كانت تنبحه منبطحة على الأرض... تفاجأت به وقفزت تجري خلفه... لكنها لم تستطع اللحاق به... كانت لحسن حظه جميع أروقة البيت مرفوعة طلباً لنسمات الهواء الباردة عصر ذلك اليوم... وما أن وصل إلى باب الخيمة حتى توقف وصاح مستنجداً:

_ احمني يا شيخ... أنا داخلٌ على مروءتك يا شيخ العرب... أنا في حماك.

هب شيخ القبيلة من مجلسه راكضاً نحوه وهو يقول:

_ أمان الله والعبد عليك يا ولدي... لقد كان تصور فارس في محله عندما توقع أن تكون هذه خيمة شيخ القبيلة، فهو ابن القبائل وابن شيخ لها... ثم أردف الشيخ:

_ لك الأمان في ديارنا... ولن يقترب منك أحد وأنت هنا في حمى الشيخ مناور... من أنت يا ولدي؟ أن كنت هارباً من دمٍ... سنفديه ونسوق دِيّته...

أم خاطف لعروس برضاها؟! نحن نصلح مع أهلها، وننقدهم مهرها... ما بك يا بني؟ ادخل الخيمة... أنت في بر الأمان ولم تخطىء اللجوء.

دخل فارس وجلس... نادى الشيخ على خدمه... ثم طلب منهم أن يكرموا فارس ويطعموه، وأمرهم بتخصيص خيمة مع حرّاسها لإقامته... وطلب منهم أن يعودوا به بعد ثلاثة أيام لمقابلته، حسب عادات العرب. إلّا أنه كان في عجلة ويريد مقابلته ليحكي له قصته...

شكره فارس على كرمه وقبل يده، وقال:

_ بل الآن يا شيخي الكريم... وأرجو أن تسمح لي أن أروي لك حكايتي...

عندها رد عليه الشيخ متسائلاً:

_ إذاً هناك من يطاردك الآن؟

_ لا أعلم يا شيخي... ربما...

_ إذاً هدئ من روعك يا ولدي... ثم انتظر حتى أرسل خلفك، فلدي مشاغل الآن.

كان فارس يود أن يسمع الشيخ مناور قصته على الفور... ولكن الشيخ عندما لم يجد فيها ما يدعو للعجلة،

طلب من مساعديه أن يكرموه ويصطحبوه إلى خيمة مخصصة للضيوف.

أما فارس، فعندما شعر بالأمان، ولم يعد يخشى شيئاً وقد أصبح الآن بحماية الشيخ مناور وقبيلته... لم يصر على مطلبه، بل ذهب مع خدم الشيخ مسروراً بنجاح خطته، وطريقة دخوله الى حمى الشيخ مناور...

خرج فارس من الخيمة مع رجال الشيخ مناور إلى خيمة الضيوف، وجلس ينتظر بلهفة أن يستدعيه الشيخ. كان فارس يحاول أن يخبرالشيخ مناور بحاجته في لحظة دخوله... لكنه خجل من أن يفعل ذلك قبل أن يسأله الشيخ تبعاً لعادات العرب الأصيلة في حماية الدخلاء... لم يطل به الأمر كثيراً حتى جاء من يستدعيه لمقابلة الشيح مناور... على الفور قال له:

_ طالما أنت في عجلة من أمرك تفضل وتكلم... قل لنا حاجتك يا ولدي؟ وإن كان سراً ما تريد قوله فأخبرني حتى أخلي الخيمة من الرجال؟

_ كلا يا شيخنا الكريم... بل ما سأرويه الآن سيكون أمام الجميع... فأنا لم أعمل ما يشين أبداً، ولكن أنا الذي أسيء إليه... وبدأ يروي قصته منذ الليلة التي سبقت خطفه.

أصغى الجميع لروايته بين مشفق عليه وراثٍ لحاله... وبين همهمات ولعنات لم يكن يقطع الصمت سوى عواء الذئاب من بعيد ونباح الكلاب حول المخيم.

أصغى الشيخ مشفقاً على ما مر به الشاب من حوادث قاسية على من في مثل سنه... والشيخ صامت لا ينبس ببنت شفة، حتى أنهى فارس قصته كاملة منذ خطف حتى هرب من منازل الشيخ حمود... واساه وطلب منه الصبر، وقال له:

_ إن ما أصابك من العذاب كتب لك في قدرك... ثم قال له: قصتك غريبة يا ولدي... ولكن أريد أن تخبرني ماذا حصل بعد أن كشفت سر سعدة؟

_ لا أعرف يا شيخي... لقد ابتلعت السر ونجاني الله منها قبل أن أبتلع الطعم، لذلك شكرت الله قبل أن تطير رقبتي أو تمزقني الوحوش... كل ما أريده منك أن تدلني على طريق قومي، ودابة وزوادة للطريق، وكان قد أوضح له لمن ينتسب ومن هي القبائل التي تنزل حول قبيلتهم.

فقال الشيخ وهو يظهر العطف والاستغراب:

_ يا ولدي دياركم بعيدة جداً... أين نحن هنا؟!! وأين أنتم هناك؟!!... ولا يمكنك الوصول إلى دياركم إلا ضمن قافلة...

نحن الآن ليس في نيتنا الرحيل من هنا... ولا غير الآن، المكان مليء بالماء وغني بالكلأ، وحتى لو حصل هذا فنحن نرحل جنوباً ونعود إلى مكاننا هذا... أنتم في أقصى الشمال... لكن سأكلف شباب القبيلة الذين يذهبون إلى الأسواق القريبة لتصريف منتجاتهم أن يراقبوا القوافل المارة وأن يعلمونا بها... وإذا شاهدوا إحدى تلك القوافل الذاهبة إلى الشمال نرسلك معها لعلها تقربك من دياركم... ونلحقك بها إن وجدت ولو على مسافة أيام... أنت تعلم أن سير القوافل بطيء جداً، ومسيرة عشرة أيام للقافلة ممكن اللحاق بها خلال يوم أو يومين على الخيل... ولكن يندر أن تمر تلك القوافل من مكاننا هذا... ربما أحياناً قد تمر قافلة تنتظر أخرى لتلم شملها مع الأهل أو الأقارب لمثل هذا السبب... وإما أن تكون قد رُحِّلت من ديارها، بسبب الثأر أو غيره...عليك الصبر يا بني.

أمضى فارس أياماً طويلة على هذه الحال... إلى أن ملّ الانتظار.

في أحد الأيام دخل على الشيخ وسلم عليه وقال:

_ يا شيخ مناور... طال جلوسي بينكم، وقدمتم لي من الواجب والحماية ما فيه الكفاية، لقد مللت بقائي على هذه الحال... لِمَ لا تدعني أساعدكم في

أعمالكم ريثما يقضي الله لي بالفرج؟ كالرعي ووضع العلف للمواشي والإبل؟ فهي مهنتي كما هي مهنتكم... حتى يشاء الله لي بالعودة إلى أهلي.

_ لا ألومك يا ولدي... ولكن أريدك أن تساعد نفسك... ثم صمت لحظات وهو ينظر إليه وقال:

سأهبك عشرين شاة... هبةً مني تكون ملكاً لك،

تتلهى وتشغل نفسك بها ريثما يمن الله عليك بالفرج... ترعى بها وتبيع منتجاتها ومواليدها وتتاجر بها... ولا أريد سوى رضاء الله سبحانه وتعالى... وحين تجد لك ما ييسر أمرك تبيعها، وتأخذ ثمنها معك تستعين به على أمورك... شكره فارس على هذه الفكرة واستحسنها كثيراً... أخذ يحدث نفسه ويقول:

_ هكذاً لن أبقى عالة على القبيلة...

ما إن عادت القطعان من المراعي حتى صاح الشيخ مناور برجاله أن يفردوا له عشرين رأساً من الغنم، ولكيلا يذله أمام قبيلته بكونها حسنة منه قال:

_ لقد بعت لفارس بيعاً آجلاً هذا العدد من الغنم... واتفقنا أن يسدد ثمنها لي في العام القادم، خذوه معكم غداً إلى المراعي وحين يأتي موعد الأسواق أيضاً، ليذهب معكم ويطلع على تجارة السوق... ثم نظر إلى فارس وقال:

_ ربما يخدمك القدر يوماً وتجد أحداً من قومك جاءت به تجارة إلى هنا...

قال فارس:

_ ربما هذا مستحيل يا شيخي لأن تجارة قومي قريبة من منازلهم لقرب أسواقهم، ولكن ربما... لا شيء مستحيل!

طالت السنون وفارس يعمل وينتظر فرجاً... وطال معها شوقه لدياره وأهله... وكل يوم يذهب إلى السوق يبيع ويشتري وينتظر القوافل القادمة، لعل وجهتها بلاده أو جاءت منها، ولكن دون جدوى.

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة على محنة فارس دون جديد، ولكن من خلال حرصه ونشاطه أصبح يملك قطيعاً من الغنم، ليس بأقل من القطيع الذي فقده... بعدها استطاع جمع ما يكفي لتسديد دينه؛ لكن الشيخ رفض أن يتقاضاه.

في أحد الأيام أرسل الشيخ مناور يستدعيه إلى خيمته وقال له:

_ يا ولدي أنت أصبحت غنياً... وفي الوقت نفسه لا يعوزك شيء من الرجولة أو الوسامة أو الأخلاق الحميدة... لقد عرفنا أخلاقك، ولمسنا أمانتك خلال السنين التي قضيتها عندنا... ولا يجوز أن تبقى بيننا في القبيلة عازباً... تدخل بين محارمنا وتعمل مع بناتنا... دعني أختر لك فتاة من القبيلة نزوجها لك... أو اختر أنت منهن من شئت، ولا بد إنك عرفت الكثير منهن في المرعى أو داخل القبيلة... يطمئنني منك أنك ذو نسب عالٍ.

رد عليه فارس:

_ شرف كبير لي هذا يا شيخ مناور... ولكن هذا الأمر ليس بيدي... لربما يجعلني هذا الزواج أنسى أهلي وعشيرتي وزوجتي... أنا أعلم الآن أنهم يتحرقون شوقاً لي... ويبكون لرؤيتي ومعرفة مصيري.... إذا قبلت ووجدت فيما بعد من يساعدني للوصول إلى أهلي... ماذا أفعل بها؟

_ تأخذها معك... أحل الله لك أربع نساء يا ولدي...

_ ولكن لم يحل لي أن أتزوج وقلبي عند أخرى... لا يا شيخي الكريم... فقط ساعدني في البحث عن طريقة للرحيل إلى دياري جزاك الله ألف خير... وحينما أرحل لن أستطيع أن آخذها معي... أليس الأمر صعباً عليّ وعليكم... فقال له:

_ كما تشاء يا ولدي...أنت رجل عاقل، اعمل ما بدا لك.

ويبدو أن الله أراد أن يحيي آمال فارس من جديد... عاد في أحد الأيام من المرعى للقيلولة بأغنامه... كانت هذه السنة من سنوات الخير العميم... ففي الشتاء الماضي لهذا العام كثرت الأمطار، ونبت من العشب الكثير جداً في جميع الأماكن القريبة والبعيدة، وامتلأت الواحات والغدران بالمياه، وأصبحت القطعان ترعى في أماكن قريبة من منازل القبيلة، ولم يعد هناك من داعٍ لتبتعد وتتعمق في البادية للرعي أو الورود إلى الماء بعد أن امتلأت الغدران وفاضت بخيرها.

ما إن عاد فارس من المرعى حتى دخل كالعادة خيمة الشيخ مناور للسلام عليه، والتسامر مع الموجودين من رجال القبيلة، حتى سمع أصوات تمتمات وضوضاء متواترة رتيبة، كأنها طنين نحل حول خلية... وقف ينظر إلى مصدرها فوجد أن تلك الأصوات مصدرها بضع خطوات خلف الخيمة... نظر إلى الشيخ وسأله:

_ ما هذه الأصوات يا شيخ مناور؟

_ هذه أصوات أطفالنا... لقد جاء الشيخ ليعلم الأطفال القراءة والحساب ويحفظهم القرآن الكريم... لقد طال غيابه هذه المرة سنوات!

_ سأذهب إليهم... هل هناك ما يمنع؟

_ تفضل ليس هناك ما يمنع من السلام على الشيخ.

خرج فارس من الخيمة وهو ينظر مستغرباً إلى رجلٍ كهلٍ... شعر كأنه رآه من قبل، فدقق بقسماته من بعيد، وما إن اقترب منه حتى ناداه:

_ الشيخ ممنون؟! يا مرحباً... يا مرحباً... كم كبرت يا معلمي!

ترك الشيخ تلاميذه يرددون آية من القرآن، وتحول بنظره نحوه يسأله:

_ من أنت يا ولدي؟ لم أعرفك!

_ ألا تتذكرني يا شيخ ممنون؟؟!!

_ كلا يا ولدي من أنت؟

_ أنا ابن الشيخ صابر...

_ يا ولدي مر عليّ في هذه البادية الواسعة العديد من مثل هذا الاسم... لا والله لم أعرفك!

أخذ فارس يذكره بالمكان والزمان وبعض الحركات التي كان يقوم بها، التي كانت تزعج الشيخ ويعاقبه عليها، لكن الشيخ لم يتذكره بل عرف قبيلته، وعرف والده الشيخ صابر... عندها شرح له فارس قصته وسأله:

_ أرجوك يا شيخ، متى كانت آخر مرة مررت بهم؟

_ نعم يا ولدي... جئتهم في الصيف قبل الماضي...

_ أي أنه قد مرَّ على رؤيتك لهم ما يقارب العامين أليس كذلك؟

_ نعم يا ولدي، وهم يلبسون السواد عليك، ويقولون إنهم في حداد منذ ما يقارب عشر سنوات أو أكثر... ولكن لماذا يا ولدي لم تعد إليهم؟

_ وهل ظننت يا شيخي الكريم أنني هارب منهم؟ الأمر ليس بيدي يا شيخ ممنون... كيف أعود إليهم وقد كنت قبل لجوئي للشيخ مناور أسيراً حوالي ست سنوات لدى إحدى القبائل؟! ولم أجد وسيلة للهرب والعودة إليهم! وأنا هنا منذ سنين أنتظر قافلة تمر متجهة إلى دياري ولم أوفق... لا تسل كم أنا مشتاق إلى أهلي!

_ في أي قبيلة كنت أسيراً؟ وأين هي من هذا المكان؟

_ قبيلة الشيخ حمود...

_ نعم عرفتها ومررت بها منذ أيام فقط، وأردت تعليم أطفالهم، لكنهم رفضوا وقالوا إنهم أهل رعي، وأولادهم لا يرغبون بذلك!

_ أتسمح لي أن أجالسكم وأستمع لتلاوتك القرآن عليهم ... أتعلم الآن ما لم أرضَ بتعلمه وأنا صغير جداً؟!

_ نعم... ربما تذكرتك وتذكرت شقاوتك... هيا اجلس خلف الأطفال، ولا ترمِني بالحصا كعهدك فيما مضى.

_ ولكن يا مولاي كم تقدر المسافة بيني وبين أهلي؟

_ أنت في ديار بعيدة يا ولدي... لقد احتجت لسنتين حتى وصلت إلى هنا... كنت أجلس في منازل كل قبيلة حوالي شهرين، وقد مررت خلالها بأربعة قبائل... كنت أقيم على تعليم أطفالها حوالي شهرين.

أي تحتاج أنت لحوالي الشهرين من السفر إن كنت فارساً يا فارس... أما مع القوافل فربما تحتاج إلى ما يزيد عن نصف سنة، والله أعلم.

الفصل الرابع عشر

أملٌ جديد

في أحد الأيام جاء أحد رجال القبيلة يجري على حصانه بأقصى سرعته... ويدل بيده على إحدى الجهات ويقول:

_ رأيت في الأفق البعيد شبح قافلة قادمة... لكن لم يتبين لي إلى أين تتجه... قال له الشيخ:

_ خذ أحد الرجال معك والحق بها... واسألهم عن وجهتهم، وأين يقصدون؟ ولا تنسوا عندما تقبلون عليهم أن ترفعوا راية بيضاء كي يأمنوا لكم...

ذهب الاثنان على خيليهما يسابقان الريح لعلّهما يصلا إليها، ثم يعودا قبل غروب الشمس.

طارد الشابان الوقت على حصانيهما بسرعة الريح... وكان في الوقت نفسه قد وصل فارس إلى القبيلة عائداً من السوق... لفت نظره أن الجميع ينظرون باتجاه واحد... نظر حيث ينظرالجميع فرأى سحابة من الغبار بعيدة، وأمامها نقطتان صغيرتان، تظهران ثم تختفيان بين الحين والآخر بحسب ما تغير الريح من اتجاهها... ناداه الشيخ مناور:

_ تعالَ يا فارس، وادعُ ربك أن يمنّ عليك بفرجه للعودة إلى قومك...

دخل فارس إليه مسلماً:

_ ماذا في الأمر من جديد يا شيخي؟

_ لقد رأى بعض فرسان قبيلتنا قافلة من بعيد تسير باتجاهٍ موازٍ لنا، وأغلب الظن إنها ستصل السوق مع غروب شمس هذا اليوم، حسب قولهم... وأمامها عدة ساعات حتى تصل إلى السوق، وقد أرسلت شابين يستطلعان وجهتها، وإلى أين تقصد هذه القافلة، ونرجو من الله أن يكون عندها تحقيق أملك... وها أنت ترى إن القافلة بعيدة جداً... اجلس ريثما يعودان بالخبر اليقين.

جلس فارس وقلبه يتحرق شوقاً لعودتهما... وبدأ قلبه يهفو ويدق بسرعة فيصطبغ الدم في وجهه... لكن الشيخ كان يهدىء من روعه ويطلب منه التحلي بالصبر.

اقترب الفارسان من القافلة متجهين نحوالمقدمة... لم يجدا قائدها في المقدمة فتوقعا وجوده ودليلها في وسطها أو المؤخرة... بينما كان أحدهما يلوح بالراية البيضاء ليجعل رجال القافلة يطمئنون لنواياهما... أخيراً وصل الشابان... ألقيا السلام ودار حديث بينهما... تعارفا بعد أن عرّفه بحسبه ونسبه وعلما منهم أنّ القافلة قادمة في تجارة، وتحمل بضائع وأنها ستنزل عدة أسابيع هنا في السوق... تبيع وتشتري ثم تتابع سيرها إلى أماكن أخرى... عند ذلك ودع الشابان رجال القافلة وعادا من حيث أتيا...

وتابعت القافلة سيرها باتجاه مقصدها. وصل الشابان إلى القبيلة... خرج الجميع وعلى رأسهم فارس يسألونهما عما عرفاه عن القافلة والجهة التي تقصدها... لم يكن جوابهما مشجعاً لفارس، الذي دخل إلى خيمة الشيخ وقد كاد يفقد الأمل... والفشل يسيطر على تفكيره.

لكنه قرر أن يذهب لملاقاة القافلة بنفسه... عند وصولها إلى الأسواق في القرية التي تشكل محطة للمسافرين، واستيضاح ما يريد أن يعرفه.

علم من الفارسين أن القافلة ستتأخر هنا... وأنها ستبقى عدة أسابيع في السوق، وتجارها يبيعون ويقايضون بما يحملون من بضائع... ثم بعدها يتابعون سيرهم إلى الأسواق الأخرى... ومع ضيق الأمل الذي رآه فارس... لكن لا يعلم سوى الله مدى السرور الذي كان يصل بفارس إلى حد البكاء، خاصة عندما علم أن الفرج قد بات قريباً له.

نظر فارس إلى الشيخ متسائلاً... فهم الشيخ مناور من نظراته ما يقصده فقال له:

_ عندما تصل القافلة سيكون الجميع في شغل عن الحديث معك... لأنهم سيبحثون عن الخانات لنزولهم والإسطبلات لإيواء خيولهم وأماكن نومهم... في الغد اذهب إليهم واسأل ما بدا لك، لعلّ وعسى أن يكون

عندهم باب للفرج، وإذا حصل ما أردت... بِع مواشيك في هذا السوق، ذلك خير لك من أن تصطحبها معك وتشغل نفسك بها في الطريق ... القافلة كبيرة وأكثر حيواناتها من الإبل وتحمل الكثير من البضائع، ومن المؤكد إن أحمالها ليست ثقيلة جداً... للتخفيف عنها بسبب سفرها الطويل جداً... لهذا سيكون في مشيتها بعض العجلة ولن تسطيع الأغنام والمواشي مرافقة القافلة بسهولة... أنصحك ببيع كل ما تملك في السوق وتأخذ قيمتها نقوداً ذهبية (عملة تلك الأيام)، وعندما تصل منازلكم، تشتري بالنقود ما تشاء... غداً اذهب إلى السوق... بع ما استطعت من مواشيك، ولا تنسَ أن تدعو بعض تجار القافلة والمسؤولين عنها لزيارتنا، ولكل من يود الحضور معهم ممن يرافقون القافلة... ادعِهم إلينا، لنستضيفهم ونكرمهم ونطعمهم... ولا تنسَ أن تبكّر بالذهاب في الصباح، ولا تعد إلّا ومعك بعض الضيوف منهم لنكرمهم وتزداد معرفتنا بهم، كما قلت لك...

فعلاً ما إن توسطت الشمس كبد السماء حتى كان الجميع يسمع صوت أهازيج فارس وضيوفه وحداهم، قادمين على خيولهم، وقد باتوا على أطراف منازل القبيلة... وكعادة القبائل البدوية... ما إن سمع من تواجد في القبيلة من الرجال تلك الأهازيج، حتى تراكضوا لاستقبالهم بالأهازيج والترحاب.

اقترب الجميع من خيمة الشيخ مناور، الذي كان واقفاً بانتظارهم أمام بابها لاستقبالهم... ونحرت الذبائح أمامهم لتكريمهم.

خلال ساعات قليلة تناول الجميع الطعام... طلب الشيخ مناور من فارس أن يروي أمامهم قصته ومعاناته، وطلب منهم أن يسمحوا له بمرافقتهم إلى أقرب مكان، يستطيع منه التوجه إلى منازل أهله، قال قائد القافلة:

_ إنّ الطريق لن يصل بنا إلى قبيلة فارس، ولكن سنأخذه معنا، وبعد مسيرة قد تطول به معنا قليلاً يستطيع أن يتركنا وينحرف عن طريقنا نحو دياره... عندها لن يبقى عليه سوى مسيرة عدة أيام حتى يصل إلى ديار قومه... ربما يجد فور وصوله رفيقاً يؤنسه على الطريق وإن لم يجد... عليه أن ينتظر في تلك البلدة مدة ريثما يجد أحداً... ومن الممكن أن يتابع وحده... لكن الطريق ليس آمناً جداً... لربما تعترضه عصابة أو أحد قطاع الطرق... ثم هناك خطر الوحوش المفترسة... وتلك الأمور ليست نادرة جداً أو مستحيلة... الخطر قائم في كل خطوة إن كان وحده... لكن سندربه ونعلمه كيف يتصرف ويحتاط، بحيث لا يخسر نفسه ولا كل ما يحمل من مال... وعسى ألّا يحتاج إلى ذلك... بعد أن تناولوا طعام الغداء عادوا إلى سوقهم.

اقترب أخيراً رحيل القافلة... ساق فارس جزءاً من ماشيته، واتجه بها نحو السوق لعله يبيعها على دفعات خلال الأيام المتبقية على رحيل القافلة التي علق آماله عليها... وحين عاد في المساء، أخبر الشيخ مناور بأن السوق لم يحقق أمله ببيع الكثير من مواشيه... فرد عليه الشيخ:

_ لا تهتم يا ولدي... إن بقي شيء من مواشيك، سأطلب من رجال القبيلة أن يشتروها منك، المهم أن تبكّر صباح كل يوم إلى السوق، والباقي على الله.

_ لن أنسى يا شيخي جميلك مدى الحياة.

ساعده الحظ خلال الأيام الأخيرة فباع أكثر مواشيه، واستبقى له القليل جداً منها، وناقة قوية يسافر عليها، ودابة يحمل عليها هدايا الشيخ مناور.

الفصل الخامس عشر

الرحيل

لم يبقَ أمام فارس لرحيله مع القافلة سوى الليلة... لذلك ذهب لوداع الشيخ مناور ورجال قبيلتة بعشاء أقامه، ودعا إليه العشيرة كاملة وكل من استطاع من رجال القافلة التي سيرحل معها فارس.

أما بطلنا فارس فنام ليلة لم يمرعليه أطول منها منذ اختطافه على يد رجال الشيخ حمود... أطالها شوقه للرحيل... ما إن لاح له الفجر حتى هم بالذهاب إلى خيمة الشيخ، لكي يودعه قبل رحيله... لكنه تفاجأ بمجيء الشيخ الذي عاجله بقدومه لوداع قبل أن يخرج من خيمته!

كان منظر ذلك الوداع مؤثراً... فارس لم يتمالك نفسه من البكاء... والشيخ أمسك دموعه بصعوبة، لقد كان يعتبره كولد له، لذلك صعب عليه هذا الفراق... لكنه أمسك مشاعره تلك اللحظة وقال:

_ برعاية الله يا ولدي... حبذا لو بقيت عندنا... أنت تستحق الإكرام لما تحليت به من أدب وأمانة... قضيت معنا أكثر من عقد من الزمن... عرضنا عليك أن تبقى عندنا صهراً ونسيباً ولكنك رفضت... ولديك العذر... فمن الصعب على المرء النبيل أن يبدل أهله... استر علينا أخطاءنا يا ولدي... وحدث بما سرك منا... عانقه ولشدة الحزن الذي أصاب الشيخ فرَّ راجعاً إلى خيمته مهموماً يغالب دموعه على فراقه.

ذهب فارس لجلب ناقته ليضع حِمله عليها، وما سيحتاج إليه من زاد وماء، فوجد رجال الشيخ مناور قد سبقوه إلى ذلك... خجل من أن يخرج راكباً حين غادر منازل القبيلة... لذلك قاد ناقته ماشياً وهو يلوح بيده مودعاً إلى كل من رآه خارجاً... حتى النساء كانت تودعه بنظراتها من بعيد، وما إن خرج من بين المنازل حتى أناخ ناقته، وركب عليها وساقها نحو السوق مكان تجمع القافلة... كلما ابتعد قليلاً يلتفت إلى الوراء حزيناً على فراق الشيخ مناور وقبيلته.

وصل فارس إلى السوق ومن بعيد بدأ يسمع رغاء الجمال، وطنين الأجراس المعلقة برقاب حيوانات القافلة التي بدأت تتحرك... انطلق فارس حتى بداية القافلة مسلّماً على كل من شاهده في طريقه، باحثاً بعينيه عن قائدها، حتى وجده، وما إن رآه الرجل حتى استقبله مسلماً والبسمة تعلو شفتيه، وقال له:

_ الحمد لله الذي وصلت في الوقت المناسب... ستبقى معنا في المقدمة حتى تكون أنيساً وسميراً لنا... القافلة كما ترى طويلة جداً، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الجمال محملة بالبضائع للتجارة، أصحابها عشرات الأشخاص من مختلف المناطق، ومن القبائل التي انضمت إلينا في الطريق...

فكما تعلم الجميع يبحثون عن الأمان... لذلك كلما مررنا بإحدى القبائل ينضم تجارها إلى قافلتنا... ليكون ذلك أكثرأمناً لنا ولهم... أرجو أن تبقى معنا في المقدمة فأنت وحيد ليس لديك سوى حصانك وجملك، ولا تجارة معك! ولشد ما أوصانا الشيخ مناور بك... كما أعطاني بالأمس هدية لك... وأوصاني ألّا أعطيك إياها إلا في المكان الذي سنفترق عنده... استغرب فارس وتساءل:

_ قبل ساعات فقط كنت معه لم يخبرني بها؟!! ربما خشي أن أرفضها؟ أم ماذا؟... تُرى ما هي؟! هل هي نقود؟ أم ماذا؟ لم يهده تفكيره إلى شيء محدد، لذلك فضل الصمت والانتظار، لكن الأمر أصبح هاجساً يشغل باله طيلة الطريق... احتار بماهية الهدية؟! فلو كانت نقوداً، لماذا لم يعطني إياها مباشرة؟ ثم إنه يعلم إن معي الكثير من المال... فحزامي الذي أتمنطق به تحت ثوبي فيه الكثير الكثير... وجلّه من عنده، كما أعطاني أضعاف ثمن المواشي التي بعتها له.

ثم لو كانت نقوداً... هل يأمن لهذا الرجل؟ وهو لم يعرفه سوى منذ أيام... أخيراً قرر أن يترك الأمر حتى النهاية... ومع هذا لم تتركه الحيرة كي يرتاح فقال في نفسه:

_ الأقرب إلى الحقيقة أن يكون قد أهداني إبلاً... اقتنع بالفكرة وأراد أن يتأكد.

ترجل عن ناقته... وأخذ يسأل عن اسم قائد القافلة وكان قد غاب عن ذهنه بالأمس... سمع باسمه الأول مرة... ثم عرف إن اسمه أبو مسافر فقال له:

_ سأدع ناقتي تسير معكم وأنا سأرجع قليلاً إلى مؤخرة القافلة ثم ألحق بكم فيما بعد.

مشى بجوار القافلة بعكس سيرها حتى وصل إلى آخرها... سأل أحد الرجال الذين يتبعون القافلة على دوابهم... وعلم منهم إنهم هم نهاية قافلة أبي مسافر... وما خلفها عبارة عن قوافل لقبائل أخرى ثم عاد يمشي مسرعاً باتجاه المقدمة ويتفحص بعيني البدوي الخبير، وسم جمال الشيخ مناور التي يمر بها، والذي يعرف شكله جيداً والمطبوع على مؤخرة إبله... لم يجد إطلاقاً ما يدل على مرافقة جمال تابعة للشيخ مناور مع القافلة حتى الصغار منها! في النهاية وصل الى المقدمة متعباً... ساعده أحد الرجال حتى ركب ناقته وهي تسير... وتابع هو مسيره على ظهرها... أمضت القافلة أياماً طويلة حتى وصلت إلى أول سوق للمواشي.

وبعد بيع وشراء لأيام أُخر... تحركت القافلة من جديد، كان فارس يحاول ألّا يكثر السؤال على أبي مسافر بمتى نصل، وأين نحن، كي لا يتضايق منه... كان عدد رجال القافلة كبيراً جداً، فكلما عنَّ بباله سؤال يسأل الآخرين... لقد تحدث مع أبي مسافر كثيراً خلال الطريق، لعلّه يدلي بكلمة عفوية حول الهدية، لكن دون جدوى عندها ترك أفكاره تسرح بأهله وزوجته وعشيرته ويتساءل بينه وبين نفسه:

_ من منهم ما زال حياً... ومن منهم قضى نحبه؟ وهل ما زالوا في مكانهم؟ ولكن من هذه الناحية كان جواب الشيخ معلم الأطفال مطمئناً إلى حدٍ ما، وإن كان غير شافٍ، لأن أخبار المعلم كانت قديمة تجاوزت السنتين منذ آخر مرة قابله.

كانت أسئلة من المستحيل أن يجد لها جواباً يشفي غليله... تحدث مع أبي مسافر، وقال له:

_ لماذا لا تسيرون بهذه التجارة نحو قبيلتنا؟ ربما تجدون لها سوقاً رائجةً.

_ طريق تجارتنا لا تمر من هناك... نحن نبدأ بالسير من مكاننا وتنطلق قوافلنا منه إلى حيث القبائل التي تعودت أن تنتظر وصولنا إليها... فنحن نشكل بتجارتنا دائرة تبدأ من منازلنا وتنتهي عندها... قد تستغرق رحلتنا

عدة سنوات كاملة أو أقل أو أكثر... حسب ما نوفق... ربما نتعرض لعواصف... أو قطاع طرق أو أمطار تعرقل رحلتنا، والأسواق التي نمر بها هي أقرب لمدن أو قرى للحضر نبيع حاجاتنا لهم... إلخ.

الفصل السادس عشر

وداعٌ وأملٌ جديد

وكانت هنا نهاية المطاف بعد مسيرة طالت أشهراً، توقفت القافلة في سوق وصلوا إليه بصحبة فارس، وكان هذا السوق نهاية رحلة فارس مع القافلة، ومن هنا يفارقهم لينطلق برحلة العودة باتجاه أهله... في عصر يوم هادئ نادى أبو مسافر رفيقه فارس:

_ تعال يا فارس... من هنا سنفترق... تعال أدلك على الاتجاه السليم الواجب أن تتخذه وتسير فيه... وأعلمك كيف تتصرف في الأزمات والمخاطر التي قد تقع فيها خلال رحلة العودة، أدعو الله أن تصل أهلك سالماً!

نحن هنا الآن في ملتقى طرق، وهنا أسواق كبيرة وواسعة وملتقى للعديد من القبائل التي ترتاده، ويكثر فيه البيع والشراء، وفي الوقت نفسه يكثر فيه وحوله اللصوص وقطاع الطرق.

كان حديثهما هذا يدور عصر ذات يوم، بعد وصول القافلة إلى هذا السوق الذي يعتبر أكبر سوق للتجار، يتلاقى فيه تجار القوافل القادمة من الجهات الأربع ... وكما قلنا إنه سوق يباع فيه ويقايض ويشترى كل شيء... ودع فارس أبا مسافر قائد القافلة الذي قال والحزن يظهر في كلماته وقسماته:

_ يؤسفني أن نفترق يا فارس... لقد طابت لنا رفقتك طيلة طريقنا الذي قطعناه معاً، ولكن الفراق الآن لا بد منه... بإمكانك الآن أن تذهب من هنا لتكمل البحث عن أهلك... وعسى أن يكتب الله لك سلامة الوصول ولقاءهم... سأتحدث معك قليلاً ريثما يكتمل وصول القافلة... كما ترى القافلة طويلة جداً وبحاجة إلى وقت طويل جداً كي تحط رحالها كاملة، ولدينا الآن وقت كافٍ لا بأس به لنتحدث... قُد ناقتك وتعالَ معي نتمشَّى قليلاً... أدلك على بداية الطريق وسأكشف لك عن هدية الشيخ مناور لك.

سار الاثنان يتبادلا الحديث حتى وصلا إلى هضبة مرتفعة قليلاً، عندها أناخ ناقته أسفلها وعقلها ثم صعدا معاً عليها... بدأ أبو مسافر حديثه فقال:

_ أرى بأن إصرارك على متابعة السفر فوراً ودون أن تأخذ قسطاً من الراحة هو خطر كبير عليك... أنت بحاجة للراحة، وكذلك الناقة بحاجة أيضاً أكثر منك للراحة... على العموم طالما أنت تريد ذلك لن أمنعك، بل ربما أرى فيه خيراً كثيراً لك... لكن تستطيع أن تريح ناقتك أثناء سيرك في الطريق، ما بين مرحلة وأخرى.

_ وما الحكمة التي رأيتها بسفري المباشر؟

_ ربما يتسرب حالك إلى بعض اللصوص، بما تحمل من نقود وما تملك... والناقة وما عليها... على العموم انظر إلى ذلك الاتجاه وأشار بيده إلى اتجاه محدد وقال:

_ أترى تلك الجبال البعيدة العالية ذات القمم البيضاء المكسية بالثلج؟

_ نعم أراها... هي نفسها القمم التي كنت أراها وأنا في قبيلتي مكسية بالثلوج صيفاً وشتاءً.

_ ثم أترى تلك القمة العالية؟ انتبه لا تجعلها تختفي عن عينيك هي دليلك... تتبع هذا الطريق الذي تراه أمامك فيأخذك إلى المنحدر... تابع السير عليه واتبع الاتجاه نفسه الذي أعلمتك به... فبعد مسيرة يوم أو أكثر ستتضح لك تلك المعالم بشكل أفضل، خلالها تكون قد قطعت تلك الوديان والتلال والتضاريس المختلفة. بعدها تنبسط الأرض أمامك قليلاً... وهنا هذه الأرض معشوشبة، وقد لا تعدم رعاة أو مضارب لبعض القبائل التي تنزل في تلك المراعي. هناك تسألهم ليصححوا لك طريقك إن شردت عنه... أما الآن سأخبرك عن ماهية هدية الشيخ مناور... كان فارس ينتظر بلهفة سماع ما سيقوله أبو مسافر عن هدية الشيخ مناور:

_ نعم هديته ثمينة جداً.. وأنا سأهديك هدية أثمن منها تحفظ بها نفسك... أما هدية الشيخ، فقد تركناها مع القافلة... الهدية عبارة عن حمولة قافلة مؤلفة من عشرين جمل وناقة، محملة بما هبَّ ودبَّ من البضائع والحبوب، اشتراها لك من قافلة أحد التجار المرافقين لنا.

أنت الآن لا تستطيع قيادتها وحدك، وصاحب تلك القافلة لا يمكنه الاستغناء عن رجاله ليساعدوك على إيصالها لديار أهلك، وذلك خوفاً من أن يكونوا قد رحلوا من مكانهم، مع صعوبة العثور عليهم مباشرة... لذلك وضعنا هذا الحل... أن تبقى هديته أمانة هنا عند أحد التجار المقيمين في القرية، هذا إذا تأخرت بالعودة لأكثر من المدة التي ستبقى قافلتنا هنا، ريثما تصل إلى قومك أو تبحث عنهم... وعندما تجدهم تعود أو ترسل بعد أيام مجموعة من أقاربك مع قافلة من الجمال فارغة لتحميلها وأخذها معهم... نحن لن نرحل من هنا قبل عدة أسابيع، فهذا السوق كبير، ولن تنتهي تجارة الجميع الهامة فيه من بيع وشراء في وقت قصير.

هيّا اذهب برعاية الله... وإن تأخرتم عن الحضور خلال تلك المدة سنترك الأحمال في رعاية صاحب الخان، وهذا الرجل من كبار التجار في السوق،

ومعرفتنا قديمة به، ولديك الوقت الكافي للوصول إلى أهلك والعودة لاصطحاب القافلة... أما هديتي لك فهذه النصائح الأربع... إذا خطر لك ألّا تأتي مع الرجال الذين ترسلهم أخبرهم بالنصائح التي ستسمعها مني الآن ليفيدوا منها أيضاً... والآن اسمع ما أنصحك به لتأمن طريق السلامة:

أولاً: لا تصدق ما لا يكون أن يكون.

ثانياً: لا يخدعنّك حلو اللسان... فقد يكون صاحبه قليل الإحسان.

ثالثاً: لا تنم في منخفضِ وادٍ مهما كانت الضرورة.

رابعاً: نم حزيناً ولا تنم نادماً... الزعل يزول ولا يطول... أما الندم فيرافقك طيلة حياتك! انتبه لما قلته لك... هيا الآن سِر في رعاية الله، واحرص على حزامك الذي تتمنطق به... تحسسه في كل لحظة كي لا يسقط منك أو يسلب، ثم انتبه خلال سيرك وراقب حولك جيداً فهذه المنطقة عبارة عن سوق يؤمه الكثير من البشر... ويستغل الفرصة بعض قطاع الطرق والمحتالين... احفظ وصاياتي ولا تهمل، وستنجو بإذن الله إذا أحسنت التصرف.

لقد أنخنا الجمال وأفردنا أحمالها هنا كي لا تخسر كل شيء إذا حدث معك مكروه... والآن وداعاً... اذهب أنت برعاية الله... وأنا سأعود إلى السوق... من المؤكد إنهم بحاجتي الآن، وربما كانوا يبحثون عني.

سأله فارس مستغرباً:

_ متى اشترى الشيخ مناور لي كل تلك الهدايا؟ وهو لم يغادر المكان أبداً!

_ عندما أولم للتجار يوم دعوتهم... الآن توكل على الله وانطلق... ولكن اسمع يا فارس... تلك القمة لا تدعها تغيب عن ناظريك... هي قبلتك، اتجه نحوها دائماً... إن نزلت منخفضاً أو تصعد منه أو ترتقي مرتفعاً... اتجه نحوها ما سرت أبداً... دونها ستتوه... ثم أنت تعلم البادية، فهي ما بين صحراء ووهاد... قد تصاب بدوار معروف وهو ضياع الاتجاهات... قد ترى الشروق من غير مكانه، وقد ترى ظلك ليس على حقيقته... إن نمت فعندما تستيقظ، هي دليلك مهما حصل... اجعلها هدفك في سيرك، واعلم أنها هي الوجهة فقط... وطبعاً لن تحتاج للوصول إليها أبداً، لأنها بعيدة جداً ومبتغاك أقرب منها كثيراً...

ودّعه وعاد إلى قافلته.

سار فارس بعد أن ودع أبا مسافر في الاتجاه الذي حدده له، وهو يتمتم بالدعاء إلى ربه أن يسهل طريقه، وألّا يصيبه مكروه، وأن يصل إلى أهله سالماً تداعبه أحلامه الجميلة ويراوده الأمل... مرة يبتسم، وأخرى يتلون وجهه بالعبوس... يهفو قلبه إلى ساعة اللقاء، يفكر بالآتي ويستعيد ما مر به... أحياناً يظن أنه في حلم ولا يصدق... إنه الآن يسير في طريق العودة نحو أهله... ثم يتساءل:

_ ترى أما زال أهلي أحياء وفي المكان نفسه؟ ترى إن رحلوا منه أين أجدهم؟! ولكن منطقتهم هذه ليست سيئة يرحلون منها شرقاً في الشتاء لكثرة الثلوج والصقيع مسيرة يومين ليس أكثر، وفي الصيف يعودون إلى المكان نفسه؟ تُرى مَن مِن أهلي قضى نحبه؟ ومن بقي منهم حياً؟ تُرى أما زالت عروس الليلة الواحدة زوجتي تنتظر؟ هل طلقت نفسها مني بناء على طلبها؟ أم تشاءم أهلي منها وأعيدت إلى أهلها؟ وما مصير أختي شيماء عند ذاك فهي بديلة لها؟ (كنا في بداية الرواية قد أوضحنا بعض عادات القبائل حول الزواج عبر مبادلة الأخوات للأخوة... أي كل أخ يتزوج أخت الآخر) تساؤلات كثيرة كانت رفيقته على وحشة الطريق، وهموم غربته القسرية... ابتعد الآن عن السوق وعن ضجيج السوق... لا صوت ثغاء مواش... ولا

جعجعة جمال... لا صهيل خيل هنا ولا نهيق حمير، ولا حتى نباح كلاب... صمت ووحشة لا يقطعها سوى صرير الحصى تحت أقدام ناقته ودابته التي تحمل بعض أغراضه... واللتان راحتا تتباطآن بالسير بعد أن أنهكهما السفر الطويل دون راحة كافية... لم تكفهما الساعات القليلة التي استراحتا فيها بالسوق... أوردهما الماء قبل رحيله عن القافلة، وتابع بهما السفر... كان يخشى أن لا تحتملا السير أكثر... ولكنه كان يعول على إراحتهما بعد ساعات قليلة من وجهته الجديدة عند قدوم الليل، ثم بعدها يقدم لهما العلف، ولن يدعهما ترعيان في طريقه كي لا يضيع وقته.

مالت الشمس نحو المغيب، فقرر أن ينزل عن ناقته ويريحها ويريح دابته ويرتاح هو بنفسه قليلاً... إنتحى فارسُ مكاناً سهلاً... أناخ ناقته وأنزل بعض حمل دابته ووضع العلف لهما... ثم فك حمل ناقته وترك الأحمال على جانبيها كي يريحها... أبقى الحمل مكانه يستند على جانبي الناقة كي يسهل عليه ربطه من جديد على جانبيها، فهنا لن يجد أحداً يساعده عليه فيما لو تركها ترعى وتبتعد عنه.

وأخذ يمشي حول المكان كي يريح جسمه الذي تصلب فوق سنام الناقة، فليس من السهل ركوب الجمال... فما هو سوى اهتزازات إلى الوراء وإلى الأمام والأعلى والأسفل (يعرف تلك الحركات كل من ركب الإبل)، كان لا بد له من الراحة وتمرين عضلاته بعد نزوله عنها كي يستطيع الحركة... بعد قليل جلس فارس قرب ناقته وأسند ظهره على أحد جانبيها... لم يشعر بحاله... النعاس سيطر عليه... فشل بمقاومته حاول كثيراً دون جدوى... ارتأى أن يغفو قليلاً... تغلب النوم عليه في ذلك المكان الموحش، وغرق في أحلام لم يستيقظ منها إلّا حين أحسَّ بحركةِ ناقته المفاجئة، وشبح رجل رآه أمام عينيه يحمل بيده مقود الناقة... كان الظلام قد بدأ ينشر أذياله لكن ضوء القمر الساطع يدفعه بقوة!

الفصل السابع عشر

طريق المتاعب

استيقظ فارس من غفوته التي أُجبر عليها بسبب التعب والنعاس الشديد ما جعله يستغرق في النوم، ولم يكن يعلم أن هناك أحداثاً هائلة ستبنى على تلك الغفوة القصيرة، التي كان يريدها أن تكون أقصر ما يمكن... المهم في الأمر أيقظته تلك الحركة حين شعر أن ناقته أخذت تتزحزح خلف ظهره... وهو يعلم بأنها لا تستطيع النهوض أو الهرب، لأنه عقلها بعد أن أناخها، لكن المفاجأة الكبرى كانت حين فتح عينيه ورأى شبح إنسان أمامه، يمسك بيديه الاثنتين مقود الناقة الطويل على شكل أنشوطة، تمعن به وبما يحمل الرجل المجهول بين يديه... شعر فارس وفهم أنه أمام مصير مجهول ومرعب.

الحبل بين يدي من لا يعرف... ولا يعرف كيف وصل إليه هذا الرجل... هل تتبعه؟ هل هو من قطاع الطرق الذين حذره منهم أبو مسافر؟ هل... هل؟ لا جواب... سوى الخوف الذي تغلب على عقله تلك اللحظة... الحبل على شكل أنشوطة (مشنقة) الرجل يقترب نحوه... يحمل الموت معه... طبعاً كان عقله يعمل بسرعة البرق... فهم بأن اللعبة التي خطط لها، كانت أن يضع الرجل الحبل حول رقبته بلطف دون أن يشعر... بعدها يقوم بلكز الناقة

بطريقة مفاجئة... فلمجرد أن ترفع الناقة رأسها بسرعة، تكون الأنشوطة أطبقت على عنقه... وعندها لا فكاك من موت محتم أو أسرٍ مذلٍّ.

تعطل التفكير لديه للحظة ونسي دنياه كلها... أصبح همه في روحه التي ستزهق بالحبل الماثل أمام عينيه الجاحظتين... وتركز همه في كيفية الخروج من هذا المأزق... لم تكن بنيته ضعيفة، ولا قدرته على القتال هينة... كان خلال معاناته وأعماله الشاقة قد أصبح بطلاً لا يضاهى بقوته، أكثر من مرة فاز برِهانٍ أحد المرات رفع حماراً عن الأرض، وحمله على كتفيه!!

كان جميع الشباب في قبيلة الشيخ مناور يشهدون بقوته وقدرته في القتال أثناء مبارياتهم الودية! في الأعراس التي تقام... وكانت عادة رفع العَمدَة المتأصلة في القبائل القديمة قائمة، فعند زفاف إحدى الصبايا إلى خارج القبيلة كانت توضع أمام العريس أو أبناء عمومته القادمين لأخذ عروسهم صخرة ثقيلة أو عمود خشبي ثقيل أو دابّة... يتوجب على أحد من أهل العريس رفع العمدة... وينطبق هذا على أقارب العروس كتحدٍ بين الفريقين، وعلى أحدهم الرد على تحدي الآخر برفع العَمدَة، وربما تكون عبارة عن حجر ثقيل أو حيوان أو إنسان، يرفعها أولاً أحد أقارب العروس

ويضعها أمام أقارب العريس ويجب على أحدهم أن يرد عليهم برفعها، وإلا قد يمنعون من أخذ العروس معهم... وقد كان فارس لها في الحالتين (عند جلب العروس أو خروجها).

أما هنا في حالته المفاجئة هذه، فلن تفيده القوة الجسدية في بداية الأمر... بل حياته مرهونة بسلامة تفكيره وحسن تصرفه.

تظاهر فارس بالعودة إلى النوم، وإطباق جفنيه وكأنه لم يرَ شيئاً... فربما يشعر اللص أن ما تصور لفارس في هذه اللحظة ليست سوى أضغاث أحلام أو تهيؤات... ومن خلال بصيص الضوء المتسرب إلى ما بين أجفانه رأى أن ما يحدث لا يتعدى في الحقيقة سوى محاولة ذكية لقتله أو نهبه، دون أن يدخل معه في معركة.

توقف الرجل لحظة قبل أن يلقي حلقة الحبل حول رقبة فارس، حوَّل نظره باتجاه الناقة... توقع فارس بأنه واقع الآن بين فكيّ كماشة... ولكن لا بد من وجود رجل آخر يساعد اللص، ولا يمكن أن يتصرف وحده، بل ربما

الآخر يربض خلف الجهة الأخرى من الناقه ولا يمكنه رؤيته... استعان فارس بقوة الشباب التي يحملها وهدوء عقله وسرعة بديهته.

خلال لحظة قفز فارس من مكانه مسنداً قدميه على الأرض، وأمسك برجلي اللص وسحبهما نحوه بقوة، وربض فوق صدره... ووضع ذؤابة خنجره على عنقه...

أذهلت قفزة فارس المفاجئة الرجل، ما جعل الحبل يسقط من يديه... خاصة بعد أن لفّ فارس يديه حول ساقيّ الرجل ورماه أرضاً على قفاه، لم يعد يستطيع اتقاء الصدمة أو الدفاع عن نفسه، وهنا سيطر فارس عليه تماماً... أما الرجل الآخر الذي لم يكن يراه، أو بالأحرى الذي لم يضيّع فارس الوقت بالنظر إليه لأن كل ثانية ستضيع سيكون فيها هلاكه، فقد تأكد من وجوده، ثم هروبه وذلك من أصوات الحصى الناتجة عن وقع أقدامه المتسارعة، وهو يطلق ساقيه للريح لمجرد أن رأى زميله ملقى على الأرض، يئن تحت ثقل فارس والخنجر الذي لا يحتاج سوى إلى حركة بسيطة ليحزّ رقبة زميله... تركه فارس يهرب وكان بإمكانه أن يطعن الأول ويلحق به لكنه قرر أن يعرف من وراء كل هذا، وخشي أن يكون معهم آخر أو آخرون.

صاح به فارس: من أرسلك؟ وماذا تريد؟ ومن أنت؟

تمعن بوجهه جيداً... لقد رأى وجهه من قبل في القافلة وحتى بين المدعوين على مأدبة الشيخ مناور، سأله:

_ ألم تكن من ضمن قافلة أبي مسافر؟

فأجاب بصوتٍ يغلبه الخوف والرجاء:

_ نعم أنا من الذين كانوا مع القافلة، ومن حضروا دعوة الشيخ مناور عندما أولم لبعض رجال القافلة.

وأخذ يعترف بما كان ينوي فعله وما فشل به، فقال:

_ لقد علمنا أنك تحمل الكثير من النقود الذهبية نتيجة بيع مواشيك... لقد حاولت أنا وزميلي طيلة الطريق أن نسرقك، ولكن رفقتك الدائمة لقائد القافلة، لم تفسح لنا المجال لذلك، وخططنا كثيراً لنفعل هذا خلال الرحلة دون جدوى، وعندما لم نستطِع أن نعمل شيئاً معك، اتفقنا معاً على أن نؤجل هذا إلى حين وصول القافلة إلى السوق، ووضعنا خطة مفادها أن نسبقك إلى هنا لنتربص بك، واتفقنا على أن لا نقتلك... ولكن أن نقوم أنا ورفيقي بنهبك فقط وسرقة حزامك، بهذه الطريقة... أي لكز الناقة بعد أن يطوق الحبل رقبتك عندها نسلبك ونتركك مكتفاً بطريقة تستطيع معها

أن تحل رباطك بعد معاناة، بعدها نكون قد رحلنا وابتعدنا... لقد فضلنا أن لا نهاجمك مباشرة، لقد خشينا أن تستيقظ وتتغلب علينا، أو ربما تدور بيننا معركة فيقتل أحدنا فيها أو نضطر إلى قتلك... لذلك وجدناها أحسن طريقة لسلب أموالك منك... الناقة معقّلة ولا خوف من أن تجرك وتقضي عليك، بعدها نتركك حياً... لقد ضمنّا أنك حتماً ستتابع سيرك، ولن تضيع الوقت بمطاردتنا أو البحث عنا، فقد سمعنا وعرفنا حكايتك من خلال مرافقتنا في الطريق مع القافلة... ثم نعود إلى قافلتنا... فما نحن إلا عمال نقود نوقاً لبعض التجار، كما نساعد في التحميل والتنزيل، ولا نملك شيئاً نخاف عليه في القافلة... أرجوك أن تسامحني وتعفو عني وسأكون عبداً طائعاً لك... اسمح لي أن أرافقك لأساعدك على أعباء الطريق، حتى تصل آمناً إلى أهلك ثم أعود مع رجال قبيلتك الذين سيذهبون إلى السوق لمرافقة القافلة التي تحمل لك هدية الشيخ مناور.

أحس المسكين أن ضغط الخنجر على رقبته قد بدأ يخف قليلاً، ما دفعه لأن يسترحم فارس بصوت ملؤه الألم والندم والتوجع...

رقَّ قلب فارس فأبعد فارس السكين عن رقبة اللص بعد أن راقت له الفكرة قليلاً، فقد توقع أن يحتاجه فعلاً... الطريق ما زال طويلاً ومخاطره كثيرة، فقال له:

_ وما الذي يضمن إخلاصك لي؟

_ ما تشاء... اشرط وأقسم لك إنني صادق... تراءت في ذهن فارس نصيحة أبي مسافر فتمتم:

_ لا تصدق ما لا يكون أن يكون... لعلّ هذه أولى نصائحه تحققت؟! ومع ذلك سأجربه بحذر...

استفاق على فحيح صوت اللص الذي أخذ يستسمحه، وهو يقول:

_ أرجوك... صدقني... أنا لن أخونك... يكفيني أنك عفوت عن حياتي... اغفر لي تلك الزلة وسأكون عبداً لك... لغيرك أعمل وعندك سأعمل جربني وسترى... رأف فارس في النهاية به... وحدث نفسه قائلاً:

_ لا أعتقد أن هذا الرجل سيخونني بعد أن عفوت عنه، ووهبته حياته... فلم يبقَ عليّ سوى أن أضغط على الخنجر قليلاً ليخترق رقبته... سأعفو عنه وسأراقبه جيداً وسآخذ حذري منه... لربما احتجت إليه في طريقي الطويل هذا، وبما أنني أعرف الطريق الذي وصفه لي أبو مسافر... على هذا لن

يستطيع أن يخدعني أو يأخذني في طرق أخرى... تلك القمة التي أتجه نحوها، هي الدليل الثابت الذي لا يتغير... عندها صاح فارس بصوتٍ جهوريّ:

_ ما اسمك أيها اللص؟

_ عُمَير يا سيدي...

_ إلى من تنتسب؟

_ لا أعلم سوى أنني عبد لأحد التجار، واسمه حمدان ورأيته أنت كثيراً في القافلة.

من خلال تلك الأحاديث... ومن نبرة صوته الحزينه أحس فارس ببعض الاطمئنان إن عفا عنه:

_ اسمع سأجربك الآن... وإن كنت أشك بإخلاصك... هيا شد الأحمال إلى الناقة وفكّ عقالها ثم اركبها، وفي نيته بأن ركوب اللص على الناقة يمنعه من الحركة السريعة... وبركوبه هو على الدابة سيسهل عليه الدفاع عن نفسه... ثم أمره بمواصلة السير وهو يسأله:

_ هل تعرف الطريق؟

_ ربما... لكنني غير متأكدٍ منه...

فقال فارس:

_ هذا أفضل، ربما أضمن عدم تلاعبك بي.

سار الاثنان في طريق كثير الوعورة، يسوقون الناقة وقد حل الظلام تماماً لكن ضوء القمر يمكنهما من هداية الطريق... طبعاً لم يكن فارس مطمئناً لأمانة رفيقه... وبدأ الفأر يلعب في عبه مع كل حركة مريبة أو يظنها فارس كذلك، خوفاً من هذا الرفيق... حتى كاد فارس أن ينسى مقصده وهو يفكر ويعمل ألف حساب له ويحادث نفسه:

_ ماذا لو غلبني النوم؟ وهل أستطيع أن أبقى صاحياً طيلة مسافة الطريق...

هداه فكره إلى طريقة يأمن جانبه! فقال في نفسه:

_ عندما أضطر إلى النوم أقيده وأمنعه من الحركة ريثما أستيقظ... يبدو إنه استحسن الفكرة.

بعد مسافة قصيرة، فجأة ظهر أمامهما رجل يركب حصاناً، ويتقاطع معهم في الطريق، يسير باتجاه غير اتجاههم... تبادلا السلام وتحادثا حول مقصدهم ثم تابع كلّ منهم طريقه.

كان فارس يراقب عُمير الرجل الذي حاول سلبه، ويفكر بالأسباب الإنسانية التي دعته لهذا الأمر وحاجته له أيضاً... وجدها عمير فرصة لإطلاق لسانه من عقاله، كي يثبت لفارس توبته وإخلاصه... لم يبطل لسانه عن الكلام سواء بشكر فارس لعفوه عنه... أو قصص وطرائف كان يرويها خلال سيرهما، خاصة بعد لقاء الرجل راكب الحصان قبل قليل... وفارس يستمع إليه، لكن عقله وفكره كان محصوراً بالحادثة التي مر بها اليوم، وطبعاً بوجهة سيره ولقاء أهله، فيتساءل من جديد:

_ هل يعقل ألّا يغدر بي هذا الرجل إن سنحت له فرصة؟ وما حكاية راكب الحصان الذي صادفاه قبل قليل أيضاً؟ ومن أين جاء وكيف تصادف وجوده في تلك اللحظة؟ تساؤلات وخواطر كثيرة كانت تشغل باله، ولكن ما زاد قلقه واستغرابه، كيف إن عمير لم يفاجأ بالفارس، بل نظر إليه نظرة هادئة جداً وكأنه معتاد على لقياه، خاصة وأن ضوء القمر لم يتح لفارس رؤية تقاطيع الوجوه بشكل جيد.

جميع هذه الخواطر دفعت به لكي يزيد حذره من رفيقه أكثر مما يجب... في الحقيقة كانت تلك الثرثرة تزعجه أكثر من أن تسليه... كانت تقطع سلسلة أفكاره التي شغلتها تلك الأحداث المريرة التي مر بها هذا اليوم،

والتي مرت به من قبل... أصبح السير الآن صعباً جداً في هذا الظلام الذي حل في كل مكان وغلفه تماماً بعد أن تلبد الجو ببعض السحب... عندها صعبت رؤية الطريق وأصبح الخوف من الضياع مثله مثل الخوف من رفيقه المرعب.

والآن أصبح أكثر ما يشغل بال فارس أن تقع الناقة بحفرة أو تتعثر بصخرة وتسقط أو تنكسر، عندها سيخسرها هي وحمولتها، عندها سيصبح اللص طليقاً ويزيد خطره... خاصة وأن لديه تجربة سابقة معه.

قرر أن يتوقف الآن للراحة وأن يناما في المكان حتى مطلع الفجر...

أناخ الناقه ثم عقلها ونادى عمير... خطر في باله أن يقيده أيضاً... لكنه تردد كثيراً، وفي النهاية عزم على تركه حراً وقد ظن به الخيرقليلاً بعد تلك المكرمة التي منحه إياها بعفوه عنه.

توكلَ على الله ونامَ بقرب ناقته متوسداً الأرض... التف بعباءته ـ ويقال لها فروة ـ السوداء المصنوعة من جلود الغنم، وكذلك فعل عُمير فقد نام في الجهة الأخرى، بحيث غدت الناقة وحملها حاجزاً يفصل بينهما... لم ينقطع عمير عن ثرثرته حتى سمع شخير فارس... خيم على المكان صمت رهيب...

لا يسمع فيه سوى عواء الذئاب وضباح الثعالب، وصوت شخير فارس المصطنع! وأحياناً تململ دابته أو حنين ناقته، أو رغائها.

لم يكن فارس سوى متصنع للنوم... وفجأة أخذ يسمع صوت خطوات متلصصة! نظر نحو رفيقه القابع في الناحية الأخرى... عمير ما زال في مكانه ويغط في نوم عميق! ما دفعه لأن يكذب نفسه ويقول:

_ ربما تكون تلك الأصوات ناتجة عن حفيف بعض الأشواك التي تمتلىء بها البادية بشكل عام... تحركت بسبب نسمات تهب في تلك اللحظات أحياناً... بقي مصغياً... لم يقتنع بذلك، لكن الصوت رجع وكأنه يأتي من أسفل الوادي العميق... ومع ذلك توقع أن يكون صادراً من بعض الحيوانات المتوحشة التي تتنقل فيه، ثم انقطع الصوت الآن... هنا بدأ فارس يستعيد في ذهنه وصايا أبي مسافر له... يحدث نفسه:

_ ترى هل صحيح إن هذا اللص الذي عفوت عنه اليوم سينسى مهنته؟ لقد أوصاني أبو مسافر بهذه الحكمة حين قال:

_ لا تصدق ما لا يكون أن يكون... نعم حقاً ما لا يكون هو أن يرجع هذا اللص عن مهنته... نعم كيف سيتبدل من مجرم، إلى شريف بين ليلة

وضحاها؟ ثم كيف أنسى لسانه الذي كان يلعلع طيلة الطريق بكلام أحلى من العسل... نعم وصية أبي مسافر بدأت تتحقق... بل اثنتان من وصاياه الأربع... لن أنام أبداً... ظل يصغي وهو يسمع أصوات خطوات أصبحت قريبة وباتت مسموعة أكثر... ثم تمتم:

_ كأني بعمير كان يتظاهر بالنوم... أشعر وكأنه الآن يتقلب... ثم ها هو ينهض الآن ويقترب ثم يقول بصوت هامس وكأني به يختبر غفوتي:

_ يا سيدي سأبتعد قليلاً لحاجة في نفسي... أتسمح لي؟ تظاهر فارس بأنه استيقظ من غفوته الثقيلة على صوته فقال:

_ اذهب ولا تتأخر... وجدها فارس فرصة سانحة لتنفيذ فكرة خطرت له... وعلى الفور، ما إن ابتعد عمير قليلاً حتى خلع فارس عباءته ووضع ضمنها قربة ماء كبيرة كانت قرب الناقة من جهته، ووضع مكان الرأس حجراً... ثم لفهم بحيث يبدو وكأنه ما زال نائماً في مكانه! ثم زحف إلى الوراء مسافة بسيطة، بحيث أخفى نفسه بين شجيرات السدر الكثيفة... ثم أخذ يراقب ما الذي سيحدث.

لم يمضِ من الوقت كثيراً حتى عاد عمير قائلاً:

_ هل تأخرت يا سيدي؟ وعندما لم يرد عليه فارس، لكزه لكزة خفيفة بعصاه... ويبدو أنها أصابت ليونة القربة... ظن أنها أصابت بطنه... طبعاً لن يتحرك فارس، فليونة اللكزة خدعت عمير... لم يخطر في باله عدم وجود فارس، وظن أنّ نومه ثقل... ومن مكان فارس رآه ينحني ويلتقط شيئاً ما ثم يرميه بعزم... بعد قليل سمع صوتاً وكأن حجراً تدحرج باتجاه الوادي... توقع بأن يكون هذا إشارة بينه وبين شخص ما، ربما هو نفسه الشخص الذي التقيا به عصر اليوم أي زميله الآخر الذي كانت مهمته لكز الناقة كي تجفل ويطبق الحبل على عنق فارس عصر اليوم المنصرم...

شاهد الآن اللص الآخر يتسلل ويقف من جهة (فارس الموهوم) ثم بسرعة البرق يرفع خنجره بيده... بينما رفيقه عمير يرفع حجراً كبيراً بين يديه الاثنتين.

فهم منها فارس بأنهما قررا اغتياله هذه المرة مباشرة... وأنهما اتفقا على التخلص منه نهائياً بتلك الوسيلة أثناء نومه...

نعم انتظراه حتى يغط بالنوم العميق لينفذا فكرتهما... بينما كان فارس تلك اللحظة، يراقب ما يحدث مذهولاً من بين شجيرات السدر البرية على بعد خطوات...

استل فارس بهدوء خنجره بيد، وبيده الأخرى خنجر عمير الذي كان قد انتزعه منه في الحادثة الأولى وتأهب للقفز عليهما.

ما إن انحنى الرجل الثاني ليطعن فارس الموهوم حتى ألقى عمير الحجر الكبير في الوقت نفسه على الرأس... ولكن طعنة فارس سبقت وفازت باختراق رقبته وقضت عليه، وفي الوقت نفسه، باليد الأخرى طعن عمير في صدره فسقط صريع غدره على رقبة الناقة... تلك الحركة التي أجفلت الناقة فانتفضت على إثرها وقذفته عنها.

حمد فارس ربه الذي أنقذه من شر هؤلاء المجرمين... بعد ذلك أزاحهما من مكانهما، وغير مكان نومه ومع الفجر شد أحمال ناقته وغادر المكان.

بعد مسيرة ليست طويلة لا تتعدى ظهر اليوم نفسه سمع صهيلاً ليس بعيداً.

ترك ناقته ودابته لحظة ثم صعد مرتفعاً صغيراً ليعلم ما وراء هذا الصهيل... فعلم بأنه صادر عن حصان مربوط تخفيه صخور الوادي، وعلم بأنه للرجل الآخر الذي تخلص منه أثناء محاولة قتله في الليلة الماضية وهو يدافع عن نفسه.

توجه فارس نحو مصدر الصوت وقاد الحصان إلى حيث ناقته، ثم ركب عليه وقاد دابته وناقته خلفه، واتخذ الطريق نفسه طيلة يومه هذا، يستعيد في ذهنه المؤامرة الثانية التي كادت أن تؤدي إلى قتله، من الأشخاص أنفسهم... حمد الله الذي نجاه منهم، وكيف استطاع التخلص منهم بذكائه الذي فطر عليه، وبما شحذت فيه المصائب العديدة التي ألمت به منذ أن فارق عائلته مرغماً حتى يومه هذا... سار فارس ممتطياً جواد اللص الذي حاول طعنه بالخنجر... يتذكر كيف سبقه بالطعنة التي يبدو إنها خرقت رقبته فسقط يتخبط بدمائه في تلك الليلة المظلمة... بمعركة وكأنها معركة أشباح في ظلام دامس!

تابع فارس طريقه، والهموم والأفكار تتزاحم في رأسه... يحاول أن يجيب على تساؤلات يسألها لنفسه:

_ ترى هل مات الاثنان أي اللصان... هل كانت طعناته لهما قاتلة؟ وهل.. هل..؟ لا إجابات يستطيع التأكد منها! لكنه تذكر شيئاً... لماذا لم أتأكد من موتهما هذا الصباح وأدفنهما... أخذ ينتقل بفكره إلى أهله وهل سيصل إليهم؟ ترى من بقي منهم حياً؟ ثم يقول لنفسه:

_ عندما أصل المكان سأعرف كل شيء! المهم الآن ألّا أضيع طريقي... تلك القمة التي أسير باتجاهها لن أدعها تغيب عن عيني... حتى تلك الغيوم التي تتلبد حولها، وفوقها وعليها لن تخدعني إذا ما حجبتها عن عيني لقد حددت علامات أخرى بالاتجاهات نفسها... تابع فارس طريقه وحيداً لا يسمع صوتاً باستثناء طرق حوافر جواده، أو أصوات الحصى المتناثر من أخفاف ناقته في بيداء واسعة لا قرار لها.

أصبح ركوبه الآن مريحاً جداً على ظهر الحصان، وأصبح يشعر براحة كبيرة وهدوء أكثر على متنه حيث يختلف عن ركوب الناقة المقلق، حين تشده تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف... كما كان عليه أن يتوخى الحذر الشديد على ظهرها خشية السقوط إن سهت عيناه... ها هو أصبح يسير الآن مطمئناً إلى أنه في أمان ولن يلحق به أحد ما، لقد تخلص من اللصين... ولكن

أفكاره عادت من جديد إلى حادثة الليل بأنه لم يتصرف كما يجب... فكر بالعودة إلى مكان الجثتين لدفنهما... أخذ يحادث نفسه، ويقول:

_ لماذا لم أعد إلى مكان الحادثة؟! فهو قريب جداً لأتأكد من موتهما ثم أدفنهما... أو على الأقل أهيل عليهما بعض التراب أو أكوم عليهما بعض الحجارة والحصى؟ لم يجد له عذراً عن هذا التقصير... فقال:

_ الآن ستمزق الوحوش جثتيهما... ولكن يستحقان؟ ثم يعود فيقدم إلى نفسه العذر تلو العذر فيقول:

_ إن إكرام الميت دفنه... ولكن هذان من عتاة المجرمين! وهل يستحقان الإكرام؟ ومع ذلك لم يتوقف، وظلت ترافقه تلك الأفكار طيلة يومه، حتى غربت عليه الشمس، وأخذ الطريق يجره إلى منحدر يؤدي إلى وادٍ عميق.

هنا لم يكد يصل إلى مجراه شبه الجاف، حتى أوشك أن يحل الظلام، ثم بالكاد أصبح يستطيع أن يميز طريقه.

أراد أن يحط رحاله في قعر الوادي... الليلة مقمرة والجو صحو... ويستطيع أن يلوذ بدوابه خلف الصخور الضخمة في قعره... بحث عن مكان سهل مريح في هذا المكان الموحش، ولكن لم تسعفه عيناه في تحقيق غايته... فقرر قطع الوادي إلى الضفة الأخرى بعد أن تذكر ما أوصاه به أبو مسافر...

ألّا ينام في مكان منخفض أبداً... قرر متابعة السير إلى الضفة الأخرى، على أن يقطع المجرى الذي أمامه بحذر شديد مهما كانت الصعوبات وهو يتوقع أن تكون بالغة جداً.

تابع السير وكان خوفه من أن تتعرض ناقته أو جواده أو دابته للكسر، وخاصة أن الناقة التي تحمل الماء والزاد وحاجياته المختلفة عليها الكثير من الأثقال... وإن حدث مثل هذا الأمر لن تستطيع دابته حملهم ولا الحصان الذي يركبه... سار متردداً ومحاذراً في كل خطوة يخطوها... وفي النهاية مَنّ الله عليه بالنجاة من تلك العقدة سالماً مع راحلته وجواده ودابته... عندها قطع مسافة بسيطة من سفح الوادي الذي يشق الهضبة إلى نصفين.

كانت تتكاثف الغيوم، وفجأة هبط ضباب كثيف انعدمت الرؤية معه من أمامه وحوله تماماً... ما اضطره لأن يتوقف عن السير نهائياً وينيخ ناقته ويربط مقود جواده بحجر تلمسه.

وكالعادة أسند ظهره إلى ناقته... ثم غرق في نوم عميق لم يوقظه منه سوى صوت هدير يصم الآذان، يصدر من قاع الوادي مع حلول فجر ذلك اليوم... نظر إلى حيث الصوت وإذا بسيل جارف من الماء يجري بعنف شديد،

ليصطدم بالصخور ثم يرتفع بعدها كألسنة لهب أمسكت بغابة سنديان... الماء يسحب كل ما يستطيع شلعه من مكانه، وما لم يستطع أن يتشبث بمراسيه جيداً... وكأنها تعاقبه بطرقه بعنف بكل صخرة صمدت في حضن الوادي بعد أن عجزت عن جرها في طريقها، محدثة أصواتاً يتجاوب صداها في جنبات المكان، ولشدة التيار فإنه لا يعفو حتى عن بعض الصخور التي دحرجها معه ماء السيل!

لم يتمالك فارس من الابتسام وهو يحمد ربه على نجاته وتَقيّده بوصية أبي مسافر حين قال له:

ألَّا ينام في مكان منخفض... أخذ يتساءل في نفسه:

_ ترى كيف جاء هذا السيل فجأة؟ كيف وما زال للصيف بقية ولم يرحل؟ ولكنه تذكر إنه بالأمس رأى الغيوم تتكاثف على تلك القمم التي يسير باتجاهها فتمتم... لا بد أن السماء أمطرت بشدة هناك على تلك الجبال في الليل، لذلك سارت المياه في مجاريها، بينما هو لم ينتبه إلى ذلك بسبب وجوده في قاع الوادي الذي تحجب جنباته عنه رؤية الجبال البعيدة جداً... وقد حدث كل ذلك وهو يغط في نوم عميق.

حمد ربه من جديد على نجاته من هذا السيل الهائج الهادر، وعلى اتباع وصايا أبي مسافر، وإلّا لذهب ضحية عِنادِه وإهماله، ولكان السيل سحبه هو ودوابه، أو على الأقل منعه من عبور الوادي ربما عدة أيامٍ... فلا جسور هنا يعبر عليها ولا أي وسيلة أخرى... شدّ فارس أحماله من جديد، ثم تابع السير بصعوبة شديدة صعوداً مع ضفة الوادي متخذاً طريقه بشكل مائل نحو الأعلى... يرتفع كلما تيسر له ذلك بعد أن اتخذ طريق المواشي السائد أمامه... ولم يبلغ أعلى ضفة الوادي إلا بعد أن غربت الشمس، عندها وصل إلى السهول المنبسطة دون أي حادث يذكر.

توقف عن متابعة السير بعدها... ونام تلك الليلة في مكان سهل مريح، توقف ولم يحاول متابعة سيره حتى الصباح، كي لا يظل في الظلام، ويتغير اتجاهه عن النقطة التي يسير نحوها... وعند طلوع الفجر تابع سيره وهو يخشى أن يكون قد انحرف عن النقطة التي يتخذها هدفاً له، بعد أن عبر سفح الوادي إلى الأعلى بشكل معترض لتسهيل سيره وسير ودوابه... كما خشي أيضاً من أن يكون قد أضاع وجهته، أو انحرف عنها قليلاً.

الفصل الثامن عشر

الطريق الأخير

لا بد لنا من العودة قليلاً إلى الحديث عن القتيلين حيث تركهما فارس، لنعلم ماذا حلّ بهما بعد تلك المعركة... بعد أن أصابت الطعنة الأولى الرجل الذي كان يحمل الخنجر بيده، وهو الرجل الغريب الذي لم يره أو يعرفه في الحالتين التي تعرض فيهما للغدر.

يبدو أن الطعنة كانت جانبية بحيث لم تتمكن منه جيداً... صحيح أنه سقط أرضاً ونزف كثيراً، ومع ذلك لم يمت، بل طوق رقبته بيديه الاثنتين، وانبطح على الأرض حتى رأى فارس يغيّر مكانه كما مر معنا حين ذهب لينام... زحف بعيداً عن المكان متسللاً في أعماق الظلام بين شجيرات السدر واختفى، ولكن النزيف الشديد عاد وقضى عليه... أما عمير الذي كانت مهمته أن يهوي بالحجر على رأس فارس الموهوم، كانت الطعنة كافية لأن تقضي عليه فمات على الفور وهو يهوي بالحجر من بين يديه إلى الأسفل، فكان خنجر فارس يخترق صدره... ساعده على ذلك ثقل الحجر وانحناءة جسد اللص معه... لذلك استطاع أن يشق الخنجر صدره حتى المقبض ليخرّ صريعاً لا حراك فيه...

تمكن فارس من متابعة طريقه متخذاً الاتجاه السليم، بعد أن وصل إلى أعلى السفح، وبانت له التضاريس التي كان يجعلها دليلاً له... عندها قام بتصحيح مساره وتابع سيره باتجاه قمة الجبل دليله الرئيس والأول... حتى شعر أنه يسير في الاتجاه المطلوب.

ازدحمت الأفكار في رأسه بعد أن اقترب من دياره... استعاد ذكرياته مع أهله وزوجته ومنازلهم ومراعيهم ومضاربهم، وكل ما يتعلق بطفولته... نسي الآن أو تناسى كل ما مر به من شقاء وعذاب، بل ربما رحلت تلك الذكريات في هذه اللحظة جانباً من فكره، الآن لديه ما هو أهم من الذكريات... هناك تصوراته وتخيلاته... متى يصل؟ من بقي في عشيرته أحياء؟ أمه؟ أبوه؟ زوجته... هل ما زالت تنتظر عودته؟ مضت أكثر من عشر سنوات وهو بعيد عنها... عاد يحادث نفسه وكأنه يتسائل:

_ ما الذي يدفعها لانتظاره كل تلك المدة بدون أمل؟! وهي لا تعلم عنه شيئاً! إن كان سيعود أم لا يعود؟ ثم ما حال أبويه؟ هذان لا مناص لهما من انتظاره طيلة حياتهما.

كل تلك التساؤلات لا جواب لها عنده... كل ما يستطيع فعله وهو ترك الأمر لخالقه، والدعاء لله أن ينير له دربه ويحفظه ليصل غايته، كما حفظه

سنوات القهر والأسر وفُقدان الإرادة حتى... وما تبقّى، وما سيحدث مستقبلاً كل هذا علمه عند ربه.

استقام طريق فارس... وأصبح يرى الآن نقاطاً سوداء متناثرة في البعيد والأبعد... عرف فيها إنها تجمعات القبائل المتناثرة في السهول الواسعة، وعرف فيها مراعي قبيلته وطفولته... لكنه حتى الآن لا يستطيع أن يميز ما يشبع فضوله، وأين أهله من بين المضارب؟

تابع سيره يحدوه الأمل بالعثور على منازل أهله في المكان الذي تركهم فيه... أخذ يسأل نفسه وهو بين الجاهل والمتجاهل:

_ أين تقع منازل أهله؟ وأين تكون بينهم منازل قبيلته... في النهاية أقنع نفسه أن الوقت ما زال مبكراً للجواب على تساؤلاته... إنما الأهم من هذا كله أن يعجل السير، ولا بد له من العجلة، يجب أن يصل قبل أن يعود رعاة الأغنام والمواشي قبيل غروب الشمس... ربما يلتقي بهم ويسألهم عن مكان عشيرته.

غَذَّ فارسُ السيرَ على جواده، الجواد الذي كسبه من اللص الذي حاول اغتياله بالأمس... وأخذ يقود دابته وناقته بما استطاع من سرعة... مطمئناً

إلى أنه يسير في الطريق السليم، لعلّ وصوله يكون في الموعد الذي حدده لنفسه أي في المكان الذي رأى فيه النقاط السوداء.

كان يتمنى ويتشوق بلهفة للوصول عصر هذا اليوم... بعد قليل قابل مجموعة من الرعاة، لم يعرف أحداً منهم ولم يعرفه أحد منهم، سألهم عن مضارب الشيخ صابر، فقال أحدهم:

_ انظر إلى هناك منازلهم... فهي ليست بعيدة عن هذا المكان، ولكن ما حاجتك للسؤال عن ذلك الرجل المسكين الذي حطمته المصيبة بفقده لولده منذ زمن طويل؟! سأله فارس:

_ من ولده؟

_ شاب اسمه فارس... المسكين خطف قبل أكثر من عشرسنوات... وهو عريس ليلة واحدة، وبقيت زوجته حسنا تعيش في كنف والد فارس ضمن القبيلة حتى الآن.

_ هل تعرفونه؟

نظر إليه أحدهم ساخراً من سؤاله، وقال وهو يهز رأسه بغرابة شديدة:

_ يا لك من أبله... كم تقدر عمري اليوم؟ ربما كنت في السنة الأولى أو الثانية من العمر حينذاك... كلا لا أعرفه، ولكن من أنت؟

_ أنا أحد الشعراء الذين يتكسبون من شعرهم... ولم يود أن يعرفهم بنفسه.

_ إذاً معك الحق... أنت شاعر يعيش في الأحلام ؟! هكذا يقول والدي عنكم... أنصحك أن تعود من حيث أتيت... لأن قلب للشيخ صابر لا يتحمل سماع الشعر... إن كنت مصراً ادخل إليه ضيفاً فقط...

لم يجب فارس، فقد غص بدموعه، ثم مسحها بكوفيته البيضاء التي اشتراها من سوق المواشي خصيصاً لكي يقابل أهله بها... ولا يريد أن يضيع من وقته الكثير، ففي نيته أن يدخل على قومه قبيل الغروب... ترك الرعاة يلملمون قطعانهم استعداداً للعودة بهم وتابع سيره، ومع سرعته المحدودة، لم يستطع ذلك!

إلا أنه وصل إلى ما قبل مكانهم بقليل وإلى مكان لم ينسه ولن ينساه أبداً... وهو المكان الذي اختطف منه قبل أكثر من عشر سنوات.

توقف أسفل الهضبة يستعيد الماضي المؤلم تغالبه الدموع الكثيفة... يتصور بذاكرته كل ما مر به في هذا المكان بالتفصيل وحتى عودته الآن... لم يصدق أنه سيرى هذا المكان ثانية، ولا حتى أن يعود إلى أهله... نزل عن جواده... ثم أناخ ناقته.

صعد إلى الهضبة نفسها، التي طلب نجدة قبيلته من فوقها، عندما كان كل ما يطلب أن يراه أحد من شباب قبيلته ويهرع مع شباب قبيلته لإنقاذه، وهو يلوح لهم بكوفيته البيضاء كوفية عرسه الجديدة طالباً النجدة... غلبته التنهدات والحسرة، وقال:

_ كان ذلك جزء من الماضي ولا أدري ماذا سأفعل الآن... ها هي قطعان الإبل والمواشي السارحة، تعود من مراعيها وكلاب القطيع تنبح من حولها وهناك غبارها يملأ الجو... وها هي الشمس شارفت على الغروب... المسافة قصيرة إذا تابعت سيري، وطالما وصلت دار الأمان وليس هناك مسافة كبيرة للوصول إليهم، والمثل يقول (صابح القوم ولا تماسيهم)، نعم ذلك أفضل لأنني أخشى من تأثير المفاجأة على أمي وأبي... وعلى نفسي في الوقت نفسه... ها أنا وصلت دياري الآن وإنّ غداً لناظره قريب... ولماذا أشغل سكان القبيلة بحالي ولديهم من الأعمال الكثيرة اليوم وفي عصر كل يوم... فصل المواشي ووضع الأعلاف وسقايتهم وحلب اللبن... وقد علمته الصعاب بعض الحكمة... وتذكر قصة ساخرة رواها له والده عندما كان يجلس في حضنه أثناء طفولته، من أن شاباً تاه عشرين عاماً يبحث عن أهله وعندما عثر عليهم، ما أن رأى أهله... ولم يبقَ أمامه سوى بضع

خطوات للوصول إليهم، أطلق ساقيه للريح يجري نحوهم وهو يهتف ويصيح: أبي... أمي... فدخل عليهم كالصاعقة... مما أدى إلى سقوطهما على الأرض ومصرع أحدهما لعظم المفاجأة... لذلك فضل التروي.

تمتم فارس في نفسه:

_ الصباح رباح... من بات بعيداً عن أهله آلاف الليالي والأيام، لا بد له من الصبر حتى طلوع الفجر، ثم استدار بوجهه نحوهم، ثم وقف يبكي وينوح ويهتف من مكانه... من شدة ألمه وفرحه:

_ جئتكم يا قومي جئت يا أهلي عدت، نجوت... نجوت... لكن يا ربي أتمم عليّ نعمتك بسلامة أهلي وقومي... و... وحسنا، نعم سيكون دخولي عليهم في الصباح أفضل لي ولهم... جلس فوق الربوة نفسها يحادث نفسه ويشير بيديه:

_ ذاك بيت والدي الشيخ صابر... وذاك بيتي ما زال في مكانه المتطرف عن البيوت قليلاً أيام العرس، وتلك بيوت أبناء عمومتي من العشيرة... أخذ يسلي نفسه ويحصي تلك البيوت التي توسعت رقعتها عما كانت عليه آنذاك وزاد عددها... بعد قليل أخذ الغبار يحجبها لحظات متفرقة... مرَّت رعشة رعب هزت جسده، ولو لم يعلم أنها صادرة عن الحيوانات العائدة من

المراعي لأمعن في الفرار وولَّى الأدبار هارباً، لقد ذكّره المنظر بالحادثة القديمة التي لم تزل تعصف بكيانه ولم تنتهِ تأثيراتها عليه... ما أن اتضحت له البيوت جيداً... حتى عاد يركز أنظاره نحو بيته ويتساءل:

_ من في هذا البيت الآن؟ زوجتي كما أخبرني الفتى قبل ساعات؟

دقق جيداً... ها هو الآن يرى امرأة تدخل البيت الآن... بالطبع لم يستطع تمييزها جيداً لبعد المسافة... ثم يعود ويتساءل وقد ألمت به رجفة أخذت تنتشر من أسفل قدميه حتى وصلت قمة رأسه وتمتم:

_ من تلك المرأة التي خرجت من جديد؟ وهنا ارتعدت فرائصه، عندما شاهد شاباً يخرج من البيت ثم يقف مع المرأة لدقائق قليلة ثم يذهب! ميزه من كوفيته، صاح:

_ يا إلهي... من أنت؟! هدأ روعه قليلاً، بعد أن جف ريقه ثم أخذ يقرأ المعوذتين، ثم قال:

_ أبداً... تلك ليست زوجتي!... بل هي نفسها! ولكن من الذي قابلته؟ من ذاك الإنسان؟ وعلى مشهد من المارة... إنها... إنها... والآن ربط لسانه، بل حُلّت عقدة لسانه... وبصوتٍ عالٍ صاح:

_ تزوجت يا حسنا؟ من يا حسنا؟ ولكن قيل لي أنك ما زلت بانتظاري! أنا الذي رفضت أجمل الصبايا لأجلك، ورفضت العز والجاه في قبيلة الشيخ مناور... يا لك من غادرة... ثم وقف يسأل نفسه ويبحث لها عما يبرر تصرفها ويقول:

_ نعم... كيف ستبقين عزباء وأنت لم تذوقي من الدنيا ليلة سعادة؟ حدق جيداً لقد تغير الوضع الآن... ها هي تدخل بيت الشعر، وها هو يلاحظ وكأن الشاب نفسه يترك القطيع ثم ينظر يميناً وشمالاً، ثم يذهب مسرعاً من أمام بيتها! عندها بقي على نيته أن ينتظر الصباح كما قرر مسبقاً، وأقنع نفسه بأن هذا الشاب أحد أبناء إخوانه، وهو مطمئن إلى رواية الفتى الذي صادفه.

وعلى ضوء ما تبقى من شفق وسطوع للقمر الذي لم يخفِ شيئاً... شاهدها تخرج من جديد وتقف بباب خيمتها... حدق جيداً وعاد إلى معركته النفسية، ليقول:

_ نعم تلك قامتها... قلبه وإحساسه يقولان له إنها هي... أخذ يمني نفسه بلقائِها ويبرر مرور الشاب بأنه أحد الرعاة لأغنامها... وأن لا بد لكرم والده

عندما فضلت البقاء بينهم من أن يهبها ما "تتمنح" به لتمسك نفسها عن حاجة الناس والقبيلة.

ثم يتساءل من جديد:

_ كيف سينتظر الصباح؟! والوقت لن يساعده... الليل أقبل وحلّ الظلام منذ أكثر من ساعة... كيف سيدخل في الليل وحتى على ضوء القمر... كظم غيظه لما فرضه عليه القدر عندما لم يجد حلاً يفيده... ظل على قراره الذي اتخذه أن يبيت ليلته في هذا المكان، وقبل أن يستدير ويهم بالنزول عن الهضبة... لفت نظره شبح يرفع رواق البيت من أحد جوانبه، ثم ينسل داخل خيمة زوجته من جهة متطرفة... لقد رآه نعم... وإن كان لم يميزه جيداً، هل هو شبح رجل أم امرأة... حار في أمره وبدأ الغضب ينهش عقله، والشيطان يرسم له طرقاً سوداء ويحثه على الهجوم... شد حزامه وتفقد خنجره، ثم ربط دوابه وهمّ بالعدو نحو المنزل... بدأ يحبو متسللاً نحو المنازل... وما إن قطع عدة خطوات حتى استعاذ بالشيطان ثم تراجع، وقال بعد أن هدأت ثورته قليلاً:

_ منذ أيام قتلت رجلين... وهل سأدخل الآن منازل قومي وأهلي بجريمة قتل جديدة؟! تذكر وصايا أبي مسافر: (نَمْ حزيناً ولاتنم نادماً) الحزن

يذهب ويُنسى بفعل الزمن، أما الندم فسيبقى طول العمر ينهش بك... ترى من هذا الرجل الذي دخل خباء زوجتي ولن أقول بيتي لوكان شبح لأنثى لدخلت من بابه؟

لم لا تكون قد تزوجت أثناء غيابي؟ وهل الذين أخبروني كاذبون؟... وهل من حقي قتله؟ لماذا لا يكون شبح امرأة؟ ربما تنام معها لتؤنس وحدتها... ولكن لماذا لم تدخل من الباب وإن كان رجلاً وكانت نيته سليمة لماذا لم يدخل من الباب مباشرة؟!

ثم عاد يكذب نظره من وقع المصيبة وقال:

_ ربما لشدة قلقي لم أتبين جيداً، أو أفرق إن كان ذاك شبح امرأة أم هو لرجل... عليَّ أن أهدأ... فالصباح ليس ببعيد وليالي الصيف قصيرة... عاد الهدوء الى عقل فارس المضطرب، ونزل عن الربوة ثم أسند ظهره إلى ناقته وغط في نوم مضطرب ومتقطع... يفتح عينيه بين الحين والآخر ينظر إلى النجوم مستعجلاً بزوغ الفجر... وبعد ليل قصير زمنه، وطويل جداً لفكره، بزغ الفجر... ركب جواده وقاد ناقته واتجه متردداً حيث أمله إلى بيته... ما إن سار قليلاً ونظره يصبو نحو باب بيته، بيت الشعر الذي أودع به

زوجته... اقترب... أوشك على الوصول فجأة خرج مَن رآه شبحاً أمس على ضوء القمر، ولم يميز جنسه أذكر هو أم أنثى؟

تبين أنه لشاب وليس لامرأة... جنّ جنونه... توقف قليلاً... وجد من الأفضل أن يغير اتجاهه نحو خيمة والده الشيخ صابر، بعد أن بدأت تعبث بعقله ذكرى سعدة الأرملة... شريفة قبيلة الشيخ حمود العجيبة! تلك التي كانت... بعد أن تملَّ عشيقها، تأخذه في رحلة أخيرة إلى الأبدية... تقتله وتتركه لتمزقه الوحوش! وتكون أول الباكين عليه... والوحوش براءة من دمه، ومع هذا تعتبرها القبيلة مستشارة الأدب والأخلاق ولاتعرف بما تفعل... تمنى أن يعود من حيث أتى، ولكنه وصل إلى هنا حيث يوجد أهله وعشيرته... ولماذا تهمه الزوجة الخائنة... الشاب يخرج علناً أمام الجميع... لابد أنه زوجها.

كان الرعاة قد بدؤوا يخرجون بقطعانهم... والقبيلة في حركة هائجة ومائجة الآن... وكان أول من صادفه في طريقه والده الشيخ صابر بذاته.

قفز فارس عن حصانه وهرع يجري نحوه حتى وصله ركع أمامه، وأمسك بيديه يقبلهما... بينما الشيخ صابر يقف مشدوهاً فاغراً فاه لا يدري ما الذي حدث... ولهول المفاجأة لم يعرفه والده في البداية... ولم يصدق بأن هذا الذي يقبل يديه هو ابنه فارس... ومع هذا كان يعانقه ويشمه، ويبعده قليلاً لينظر إليه ثم يضمه من جديد، بينما كانت نظرات فارس معلقة بخيمة حسنا يحدق نحوها ويتحسر... بعد أن خرج منها الفتى طويل القامة... ياللهول لقد دخل آخر... وما زال الأول يسير مقبلاً نحوهما... وصل الفتى ووقف يستغرب حرارة اللقاء بين الشيخ صابر وذلك الرجل الذي يقود حصاناً وناقة ودابة... وما إن رآهم حتى استوقفه اللقاء... وهو الشاب الذي خرج قبل قليل... نظر إليه فارس... لم تخط شواربه بعد، وأتى من خيمة زوجته، صاح منادياً:

_ من هذا يا جدي؟ لم يبالِ فارس بالصفة التي أطلقها على أبيه... ظنّ أن هذا الفتى أحد أبناء عمومته، ناداه بكلمة جدي احتراماً له... وهنا برد قلبه وهجع فكره... كان فارس يعانق والده ويفكر فيه وفيمن يكون الفتى الآخر الذي دخل الخيمة؟

لكن الشيخ أبا فارس ناداه:

_ تعال يا حمدون... تعال سلم على والدك الذي كنت تسمع به ولا تعرف شكله منذ أن ولدت... هذا هو أبوك فارس، فما كان من فارس إلا أن قفز نحو ولده وهو يقول:

_ ألف ألف شكر لك يا أبا مسافر... عندها سأله أبوه مستغرباً وهو يضحك.... من هذا أبو المسافر؟ أتقصد نفسك أنت يا فارس؟ وهل تزوجت أثناء سفرك وأسموك أبا المسافر؟

_ كلا يا أبتِ... ولكن صاحب القافلة أوصاني عدة وصايا اتبعتها ونفذتها جميعها على خير وجه، ولو أنني اتبعت ما أملاه عليّ الشيطان لقضيت ما عشت من حياتي نادماً على ما فعلت... نعم بالأمس نمت ليلتي حزيناً... والآن رحل الحزن مع رحيل تلك الليلة... وعندما تجتمع القبيلة في خيمتك سأروي قصتي على أسماع الجميع... فرد عليه والده ضاحكاً:

_ قدر الله لك أن تنجو من جريمتين... حمدون هذا وشقيقه التوءم حمَّاد!

_ يا إلهي ما أكرمك! تعويضات بالجملة... هنا ولدان وهنا زنار محشو بالذهب... وأشار إلى زناره الذي بدأ يخلعه ليعطيه والده... وتحتي حصان عربي من أجود الخيول، وهناك حمولة عشرين ناقة من الأرزاق هدية الشيخ مناور!

سلم فارس على أهله جميعاً... كان لقاء حلم به منذ أكثر من عشر سنوات، بعدها ذهب إلى زوجته التي لم تكن تحلم بهذا اللقاء، أو أن ترى زوجها مرة أخرى... وبعد سلام سريع وعتاب وشوق أخبرته بما أعقب رحيله وما مر عليها من عذاب وحزن وشوق... لكن وجود أب حنون مثل الشيخ صابر... بلطفه وطيبه خفف عنها الكثير من المصيبة... ظلت تحدثه وتتجنب الإشارة إلى ولديه التوءمين اللذين ولدا أثناء غيابه وهي تنتظر حتى يدخل لتفاجئه بهما، ولم تكن تعلم بأنه قابل حمدون وسلم عليه، إلى أن قالت فرحة:

_ الحمد لله على السلامة يا أبا حمدون، وحمّاد...

_ الله الله ومن حمدون هذا وحماد الآخر؟! متجاهلاً معرفته بالأمر.

_ ولداك يا أبا حمدون وحمّاد اللذين أنجبتهما أثناء اختفائك!

_ ما شاء الله... ومن تزوجتِ في غيابي؟ وهل مات والدهما لتنسبيهما إلي؟

_ نعم تزوجت ليلة غيابك بفارس الفرسان ابن الشيخ صابر.

_ والله لم أدرِ بأنني أصيل ابن أصيل لهذه الدرجة، وتزوجت من أصيلة بنت أصيل كذلك... هكذا قيل إنني ولدت أيضاً! لا عليك قابلت ولدي

وسلمت على حمدون وبقي أن أسلم على حمّاد، وكنت أتجاهل أمامك على سبيل المزاح... عندها نظرت نحو الستارة داخل الخيمة ونادت:

_ تعال سلم على أبيك يا ولدي... دخل الفتى من خارج الخيمة وتقدم للسلام على والده... لكن فارس ضحك وقال... وهل تنتظرين مني أن أصدق ألاعيبك... سلمت على حمدون قبل قليل عندما سلمت على والدي... أليس كذلك يا حمدون... فتبسم الفتى وهو يقول:

_ كلا يا والدي أنت صادق لأنك سلمت على حمدون... وواهم لأنني أنا ولدك حمّاد شقيق حمدون!

_ يا ربي... ألم ينتهِ عصر الأحاجي اليوم... ثم أضاف:

_ سأذهب الآن إلى القوم الذين ينتظرونني في خيمة والدي الشيخ... ولكن ما أستغربه عدد الخيام الظاهرة الكثيرة التي أراها الآن في الجهة الأخرى من السهل، والتي لا تبعد كثيراً عن منازلنا... كأني بقوم جدد حلّوا في هذا المكان!

_ كلا ليسوا جدداً، بل جاؤوا لمجاورة الشيخ وتهدئة خاطره بعد اختفائك بفترة قصيرة...

_ ومن هؤلاء الذين تركوا ديارهم لهذا السبب فقط؟

_ إنهم من يهمك أمرهم... لقد توفي والدي الشيخ أبو سميحان بعد غيابك بسنة تقريباً، وبايعوا أخي سميحان شيخاً على القبيلة... ويقولون إن الأرض قد أجدبت في ديارهم... لذلك طلب من قبيلته الرحيل إلى جوارنا، فمنطقتنا هذه كما تعلم يفيض بها الغيث والكلأ سنوياً...

فقال ممازحاً:

_ لِمَ لاتقولين بأن أختي شيماء فرضت عليه أن يسكن بجوار أهلها؟! وأنت أيضاً تريدين جلب أهلك إلى قربك؟

_ يشاع مثل هذا الكلام، ولكن مصلحة القبيلة هي الأهم.

بعد دقائق جاء من يرسل خلف فارس، فالجميع يتواجدون للسلام عليه وتهنئته بالسلامة، أولاً... وثانياً كي يشاركهم القرار السريع الذي اتخذوه للرد على القبيلة التي غزتهم وخطفت ابنهم وسلبت مواشيهم.

وصل فارس بعد أن كان الجميع قد اتخذوا قراراً بالغزو المضاد... لم يعترض على قرارهم سوى الشيخ صابر... جلسوا ينتظرون وصول فارس.

أقبل فارس، واستقبل من بعيد بموجة عاتية من إطلاق الرصاص في الهواء احتفاء بعودته سالماً...

صاح أحدهم:

_ الثأر... الثأر لك منهم يا فارس... ردد الموجودون تلك الجملة باستثناء الشيخ صابر:

_ الثأر... الثأر... لن نسكت على الضيم... المهم إما أن تقودنا يا فارس أو تدلنا.

_ بل أنا أولكم وأسير أمامكم... أربع سنوات وأنا عبد عند الشيخ حمود ومواشيه أنام كالكلب... آكل من فضلات طعامهم كحيواناته... بل أنا من سيقطع رقبة شداد الذي ضربني بعصاه على أم رأسي حتى أفقدني الوعي وكان سيتخلص مني لولا كبيرهم، الذي رأى أن من مصلحة القطيع وكلاب القطيع أن أكون راعيهم! لكن انتظروا الآن حتى يذهب بعضكم لجلب هدايا الشيخ مناور من سوق المواشي القريب إنه على مسيرة يومين أو ثلا ثة فقط... القافلة تحت حماية ورعاية قائد القافلة أبي مسافر... بعدها نجلس ونتداول الأمر معاً ونأخذ الرأي الأصوب.

_ حسنٌ... لك هذا... ولا تنسَ أننا أصبحنا عدداً نرهب بنا أكبر القبائل، بعد أن انضم إلينا جميع أقاربنا من قبيلة الشيخ سميحان رحم الله والده...

جلس فارس يحدث قومه ويروي لهم قصته كاملة منذ أن خرج مع القطيع في اليوم الذي تم خطفه حتى وصوله إليهم سالماً، ثم قال:

_ من منكم سيتطوع لحماية وجلب القافلة المرسلة من قبل الشيخ مناور... لقد أكرمني الله بذلك الرجل الشهم الذي رعاني كولده بقية السنوات التي هربت خلالها من الظلم، وليس كما فعل الشيخ حمود الذي جعلني عبداً له ولأسرته.

الفصل الأخير

إسقاط الحقوق

بعد ليلة أطل فجرها وكادت شمسها أن تظهر من الاحتفالات والفرح، والعرس الجديد... افترق الجميع على اتفاق تم بينهم على ذهاب البعض لجلب الهدايا من حيث المكان الذي تركها فارس... وبعدها يجتمع الكل للتخطيط لغزو قبيلة الشيخ حمود والانتقام لغزو ديارهم... خاصة وأن فارس أخبرهم بأنه سمع في ذلك الوقت من الغزاة، أنّ نيتهم كانت غزو المنازل نفسها، ولكن الله قدر لهم أن يكتفوا بما استولوا عليه من المواشي وفارس نفسه، وكان خوفهم نقص عددهم، بعد أن رافق قسم منهم القطيع.

وهناك كان يسمع دائماً خوفهم من أن يؤدي إطلاق سراحه إلى عودته مع رجال قبيلته للانتقام منهم.

فجر اليوم التالي تحرك عشرة من الرجال الأشداء باتجاه السوق مع جمالهم لنقل هدايا الشيخ مناور، ما بين مسلح ببندقية وما بين حامل هراوة أو سيف بعد أن حذَّرهم فارس من وجود قطاع طرق ولصوص في طريقهم.

بدأ ركبهم بالتحرك منذ فجر اليوم التالي، أهازيجهم وأغانيهم الشعبية تملأ الفضاء طرباً... لم يقف في طريقهم ما يعيقهم في الذهاب... رافقوا القافلة أثناء العودة وكانوا في حراسة القافلة هم وحوالي عشرة أفراد من مرافقيها الأساسيين... ما إن وصلوا إلى الوادي الذي ذكرنا معاناة فارس حين قطعه

حتى وصل إلى آذانهم عواء ذئب مصدره أحد الكهوف في صفحة الوادي يتجاوب صداه في أكثر من مكان.

وكما قلنا أنّ أكثر مرافقي القافلة من الرجال الأشداء الذين اعتادوا على المفاجآت والمعارك مع اللصوص... لذلك ما إن سمع قائدهم تلك الأصوات حتى حذرهم قائلاً:

_ ما تسمعونه الآن من أصوات للذئاب ما هو إلا لغز متفق عليها بين اللصوص، لذلك... وأشار إلى حوالي خمسة أشخاص بأن يتخلفوا عن أماكنهم بالجلوس على الأرض... لأن من سيهاجم سيبدأ من أضعف نقطة وهي مؤخرة القافلة من الخلف.

انبطح هؤلاء الرجال في أماكنهم ينتظرون أوامر صاحبهم ويراقبون ما سيحدث، وبينهم ثلاثة من حملة البنادق... لم يكن هجوماً من اللصوص بكل ما تعنيه الكلمة... بل كان تسللاً بين جملين من المؤخرة، في محاولة لحجز ما خلفهم من الجمال والرجال من مؤخرة القافلة، طبعاً كان قصدهم في البداية أن يتم ذلك بعد الهجوم على حراس المؤخرة... فوجدوها فرصة سانحة للكسب دون قتال، حين لم يجدوا من يقاوم أمامهم، ظنوا أن

عمليتهم تمت دون قتال... عندها انحرفوا بكسبهم نحو أحد الجوانب الخافية.

كانت جميع الجمال محملة بخيرات الهدايا التي قدمها الشيخ مناور لفارس، رحل اللصوص بها وقد ظنوا أنهم فازوا بغزوتهم هذه... بينما كان أفراد الحراسة من قبيلة الشيخ صابر يسددون بنادقهم ويقتنصونهم واحداً تلو الآخر، ثم يستعيدون ما سلب منهم ويفوزون بخيول العصابة ثم يتابعون سيرهم، ويمنون أنفسهم بما سيكسبونه بغزوة الثأر في ديار الشيخ حمود.

ولمجرد وصول القافلة بسلام دون ما يعرقل سيرها...

اجتمعت القبيلة لبحث غزوة الثأر باتجاه منازل الشيخ حمود، وبدأ الحوار مع فارس:

_ أين نعثر على أعدائنا؟

_ لن تجدوهم هذه الأيام في أماكنهم... إنهم يرحلون في مثل هذا الوقت من كل عام إلى أماكن بعيدة جداً عن منطقتهم...

_ نذهب إليهم أينما كانوا...

_ من غير الممكن ذلك... المسافة بعيدة جداً وقد تحتاجون لأسابيع كفرسان وإن كسبتم ستحتاجون للعودة لعدة لأشهر مع القطعان...

_ إلى متى تريدنا أن ننتظر؟!

_ إلى نهاية فصل الشتاء القادم، في الربيع ربما يعودون من المكان الذي رحلوا إلى مكانهم الأول حيث كانوا... هذا إذا أجدبت الأرض بأماكنهم الجديدة...

وقف الشيخ صابر يرجوهم أن لا ينجروا وراء حماستهم وعواطفهم ويقول:

_ هذا ابننا فارس عاد سالماً... وفاز بأكثر مما تمنى من خير ومال... وبذهابكم من سيضمن لنا ألّا تغزونا بعض القبائل؟ وأنتم غائبون في غزوتكم... من يحمي نساءنا وأطفالنا وأرزاقنا حينئذٍ؟

عندها برد حماس الجميع وتوقف التحريض من الكثيرين، ووجدوا في كلام الشيخ صابر الكثير من الحق والحكمة.

تمت بحمدالله

عرسان في مجاهل الصحراء

رواية

جهاد نصر مقلد " نبيل "

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com